أعلام مبرزون

من الشرق والغرب

ليون تولستوي

٤

T

دار الشرق العربي

ليون تولستوي

1828 ــ 1910 م

1

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة
لأعلام مبرّزين من الشرق والغرب

---

1 ـ الإسْكندَر الأكبـــــر	2 ـ هنيبَعـــــــــــل
3 ـ أبو العـــلاء المعـــرّي	4 ـ ابـــنُ بطّوطـــــــة
5 ـ ابـــنُ خلـــــدون	6 ـ كريستوف كولومبوس
7 ـ وليَـــم شكسْـــــبير	8 ـ نـــابوليون بُونـــابرت
9 ـ ليـــون تُولسْـــتوي	10 ـ المهاتما غانْـــــدي

كتبها وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

أعـــلام مـــبــرزون

من الشرق والغرب

ليون تولستوي

1828 ــ 1910م

دار الشرق العربي

حلـــب ســـوريـــة ـ ص.ب:415

بيروت لبنان ـ ص.ب: 11/6918

بسم الله الرحمن الرحيم

كتبها وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي

حلب ـــ سورية ـــ ص.ب: 415

الطبعة الأولى 1998 م - 1419 هـ

الطبعة الثانية 2000 م - 1421 هـ

الطبعة الثالثة 2002 م - 1423 هـ

طبــع فـي : المطبعة الحديثة ـ حلب

المقدمة

يُعدُّ **تولستوي** مــــن كِبــار أعــلامِ الدُّنيــا المبرِّزين العباقِرةِ الخالدينَ، بما خلَّفَ للإنســـانيةِ من تُراثٍ فنيٍّ قصَصيٍّ، ومؤلَّفاتٍ فكْريَّةٍ ودينيَّةٍ، هي دونَ ريْبٍ من روائِعِ الآثارِ التـــي تضمــنُ لصاحِبِها البقاء والشُّهرةَ والخُلودَ، أمَّـــا كفاحُـــهُ الطويلُ للقضاء على الظُّلْمِ، وتحقيقِ المحبَّةِ بيــن الناسِ، وعدمِ مقابَلةِ العُنْفِ بـــالعُنْفِ، ونضالُـــهُ البطوليُّ المُستَميتُ ليردَّ إلى المسيحيَّةِ بســـاطتَها الأولى، ويدفعَ الحاكمين في روسية إلى الالــتزامِ بِتعاليمِ المسيحِ في الحُبِّ والتَّسامُحِ والسَّلامِ، أمَّـــا كفاحُهُ الطويلُ هذا فقدْ جعلَ منهُ أعظَمَ رجلٍ فـــي عَصْرِهِ، حتّى عُدَّ "**رجُلَ العالَمِ**" و "**نبيَّ العصْــرِ**"

و"**عبقريّ روسية الأعْظَمَ فــي القـرْنِ التاسِــع عشر**" وحكَم النقادُ بأنّ لأفْكارِهِ وتعاليمِــهِ أكــبرَ الأثرِ في انفِجارِ الثورةِ الاشتراكيَّةِ الكُبْرى فــي وطنِهِ، بعدَ سبْع سَنوات من وفاتِهِ، وكان قد **تنبــأ باندِلاعِ الثورةِ فوْقَ الأرْضِ الروسيَّةِ**، مُحـــاوِلاً أنْ يوقظَ الضمائرَ الغافيةَ على حقيقـــةِ الوضْـــعِ الاجتماعيِّ المُظْلِمِ في بـــلادِهِ، مُنـــدِّداً بالفَســادِ والظُّلْمِ، ومُتصدِّياً بكُلِّ شجاعةٍ وتحدٍّ للاســـتبدادِ الطويلِ، في روســـيةِ المقْــهورةِ تحــتَ ليــلِ القيصريَّةِ الأسْودِ.

وفي الصَّفحاتِ التاليَّةِ نحاوِلُ تقديم **موجــزٍ لسيرة هذا العبقــريِّ المُــبرِّزِ الفنّــانِ المُفكِّــرِ المُناضِلِ**، في مراحلِ حياتِـــهِ وكِفاحِــهِ، خــلال

عُمرِهِ المديدِ، إلى أن يقضي نحبَهُ في نهاية العشر الأوَّلِ من القرنِ العشرين، وقد جاوز الثمانينَ منْ حياتِهِ الخِصبةِ والغنيَّةِ بالإنتاجِ والعطاءِ والنِّضالِ.

الباب الأول

روسيّةُ القيصريَّةُ في عهد تولستوي

1

أقْبَلَ فجرُ القرنِ التاسعَ عشرَ على أوْرُبّـــةَ وروسيَّةُ ما تزالُ تعيشُ في الظلامِ، تحت حُكْـــمِ ليلِ القياصِرةِ الطويلِ، فكانَ خَمسونَ مليوناً مـــن الزُرَّاعِ والفلاحينَ فيها عَبيداً للقَيْصَـــرِ ومُـــلاّكَ الأرضِ من النُّبلاءِ ورجالِ الكنيسّةِ، **وقد أسْهمَتْ حملةُ نابوليون الفاشِلةُ على روسيةَ في إيقـــاظِ النائمينَ على الجَوْرِ والعبوديَّةِ**، ولكنَّ القَضـــاءَ على نابوليونَ عزَّزَ مكانَةَ القيْصَـــرِ، **الإسْـكَندرِ**

الأولِ، فظلَّ دُعاةُ الحُرِيَّةِ إلى نِهايةِ الرُبْــعِ الأوَّلِ من القرْنِ يترَّقَبونَ عبثاً انحِسارَ الظَّـــلامِ! وفـــي عامِ 1825 تولَّى **نيقولا الأوَّلُ** عرشَ القيـــاصِرةِ، بعدَ وفاةِ أبيهِ، فنشِطَتْ مُقاومةُ القيصرِ الجديـــدِ، وكانَ صارِمـــاً قاســياً، **فقضـــى علـــى حركـــةِ المُتمرِّدينَ** بعُنْـــفٍ وقســـوةٍ (وتُعْـــرفُ بحركـــةِ **الديسمبريين**، لقيامِها فـــي ديســـمبر ــ كـــانون الأول ــ 1825) **ولقيَ كثيرٌ من أفْرادِ الجمعيـات السرِّية حُتوفهُمْ**، وبسَطَ القيصرُ رقابتهُ على كُــلِّ ما يُنشرُ، وظنَّ أنَّهُ قد قضى على كُلِّ ميلٍ إلـــى الحُرِيّةِ، عن طريقِ أعْوانِهِ وزبانيَتِهِ من رجـــالِ الشُّرْطةِ السِّريةِ، ولكنَّ العاصِفةَ ظلَّتْ ثائرة فـــي القُلوبِ، تترقَّبُ الفُـــرَصَ الســـانِحةَ للظُّـــهورِ،

وجاءتِ الفُرْصةُ مع (حربِ القَرْمِ) عــــام 1853 حين أصبحتْ جيوشُ انكلترة وفرنسة وتركيـــــةَ تُحاصرُ جيشَ القيْصـــــر، وهُـــوَ عـــاجزٌ عـــنِ الصُّمودِ، وأدْركَ القيصرُ أنَّ شعبَهُ المقهورَ قـــدْ فقَدَ حماستَهُ لهُ، وأنَّ النقمةَ تغلي في الصُّـــدورِ، وقد عبّرَ الناقِمونَ عنْ غضبِهِمْ في المنشـــوراتِ السريَّةِ السَّاخِرةِ التي كان الشعبُ يتداولُها وجـــاءَ في واحدٍ منها:

"يقولُ القيْصرُ: لقد جعلني اللهُ حيـــثُ أنـــا مُهيْمِناً على روسيةَ، فعليْكُمْ أن تنْحنُوا راكعيـــنَ أمامي، فإنَّ عرشي هُو كُرسيَّهُ، ولا تُعَنُّوا أنفسَكُم بالمَصالحِ العامَّةِ، فإنِّي أفكِّرُ من أجلِكُمْ، وما أنـــا

في حاجةٍ إلى من يُشيرُ عليَّ، فــإنَّ الله يُلــهمُني الحِكمةَ، فافخَروا أيُّها الروسُ بأنَّكُمْ عبيدي.

ولقَدْ أنْصتْنا نحنُ معشرَ الروسِ إلــى هــذهِ الكلِماتِ في خُشوعٍ عميقٍ، وسلّمنا بِها طــائعينَ، فماذا كانتِ العاقِبةُ؟

ها نحنُ أولاء ــ واأسفاهْ ــ قد أخِذْنا علــى غرّةٍ، وأحيطَ بِنا ونحنُ غــافِلونَ.. **أفيقــي يــا روسية! التهمكِ الأجانِبُ من أعدائكِ، وحطَّمتْــكِ العبوديّةُ، أفيقي من نومِكِ الطَّويلِ، وقِفي ثانيــةً هادِئةً أمامَ عرْشِ الطاغيةِ**، واسْأليهِ أنْ يُقدّم لــكِ اليومَ حِساباً عنِ الكارِثةِ القوميةِ!"

وعِنْدما سقطَ حِصْنُ سباستبول اهتزَّ عــرشُ القيصرِ، وقضى نيقولا الأولُ نحبهُ بعد ثلاثيــــنَ عاماً من حُكْمِهِ الأسودِ المُظْلِمِ.

وولِيَ **الإسكندرُ الثاني** العرشَ ســـنة 1855 وكانَ ذا نزعةٍ إنْســانيةٍ ورغبَـــةٍ صادقـــةٍ فـــي الإصْلاحِ، فعفا عمَّنْ بقِيَ حياً من المَحْكومين مِنَ المتمرّدينَ الديسمبريين، وســمَحَ بنصيــب مــن حُرِّيَةِ النشْرِ، وأقدَمَ على تحريرِ رقيـــقِ الأرْضِ عام 1861، وهذا أجلُّ عملٍ في إصْلاحاتِهِ. غـيرَ أنَّ حماسةَ الإسكندرِ الثاني للإصْــــلاحِ أخــذتْ تفتُرُ، لِمَا رأى من ثورةِ البُولنديين، ولخوْفِهِ مــن تقلُّصِ سُلْطتِهِ الفرديّةِ أمامَ مُطالبةِ الشعبِ كلِّــــهِ، بإقامَةِ نظامٍ تمثيليٍّ نيابيٍّ، وكانَ المستنيرونَ مــن

رجالِ الأدبِ والثّقافةِ والصَّحافةَ والفَلْسفةِ يدعونَ إلى التخلي عنِ **التقاليدِ الباليةِ العتيقةِ**، ويريدون أنْ تأخُذَ روسيةُ الطريقَ الذي سلكتْهُ أوربةُ في الفِكْرِ والحضارةِ، لِتُصبِحَ دولةً حديثةً وتحقّقَ مثلَ ما حقّقَهُ الغربيون مِنْ مظاهِرِ التقدُّمِ الماديِّ المُتواصِلِ. ومن صُفوفِ هؤلاءِ المثّقفين المُستنيرين **ظهرَ حزبٌ ناقِمٌ ثائرٌ على كُلِّ شيءٍ**، يُمثِّل السلبيةَ المُطلقةَ، ويدعو إلى التحرُّرِ من الماضي، والتخلُّصِ من كُلِّ عاطِفةٍ وعُرْفٍ وتقليدٍ، لأنّ ذلك هوَ ما يستعبدُ عقولَ البشرِ ويمنعهُمْ عَنِ التقدُّم، **ووجدَ هذا الحزبُ الفوضويُّ رواجاً لأفْكارِهِ في أوساطِ الشّبابِ**. وكانتْ جماعاتٌ أخرى في روسية قد انتهى بها اليأسُ

إلى اللجوءِ إلى **العُنفِ واغتِيالِ رجـــالِ السُّــلطةِ** من أعْوانِ القيْصـــرَ، وهكــذا أصبــحَ العُنــفُ والاغتيالُ وســيلةَ جماعــاتٍ كثــيرةٍ لموجهَــةِ الاضطِــهادِ والإرْهــابِ الحكومـــيٍّ، **وتعــدَّدتْ المحاولاتُ لاغتِيالِ القَيْصرِ نفْسِهِ**، بعدَ أنْ أصبح ينفِرُ من الإصْلاحِ ويعُدُّه طريقاً إلى الفوْضـــى، وأقام القيصرُ حُكماً عسْكرياً في أقاليمِ روســـيةَ، وأصبحتِ الفِتَنُ والقلاقِلُ تتكرّرُ فـــي شــوارِعِ موسكو وبطرســـبورغ، وصــارتِ الجماعــاتُ السريةُ تغتالُ أعوانَ الحكومـــةِ والقيصـــرِ فـــي وضحِ النّهارِ، وأحسَّ الإسكندرُ الثاني بـــالخطرِ، فأراد أنْ يحتكمَ إلى مجالِسَ المُقاطعاتِ، فلم تجـدْ هذهِ عِلاجاً للوضْعِ بغيْرِ إعْطاءِ الشــعبِ حُريَّــةِ

الرأي والفكرِ، فلا يُمكنُ أن تُعرفَ شكاوى النَّاسِ إلاّ إذا أتيحتْ لهُمْ حُرِّيَــــةُ التعْبــيرِ عــنْ تِلــك الشكاوى! والإسكندرُ الثاني لايمكنُ أن يرضــــى بِهذا العلاجِ، فهُوَ طاغيةٌ ولا يتنازلُ طاغيةٌ عــن سُلْطانِهِ باخْتيارِه!

ولِهذا كانَ لابُدَّ لمحاولاتِ اغتيالِ الطاغيــــةِ أن تتكرَّر، وإذا لمْ ينجحْ بعضُها، فقـــدْ نجحــتْ آخرُ تلكَ المحاولاتِ بإلقاءِ قُنبلتَيْنِ على موكِبــــهِ، **فخرَّ الطاغيّةُ على الأرْضِ بدِمائهِ**، في يومٍ مــــن أيام آذار 1881، **وأعْلن الثائرونَ أنَّهُمْ لنْ يكفُّـوا عن العُنفِ حتـــى تتحقّــقَ مطالِبُــهُمْ بــإطْلاقِ**

الحرياتِ للصحافةِ والاجتماعاتِ وإقامةِ مجلـــسٍ وطنيٍّ يُنتخبُ أعضاؤُه بالاقتراعِ العامِّ!

ولكنِّ ليلَ روسية ما يزالُ مُظْلِماً، والفجـــرُ بعيدٌ بعيدٌ!

2

وتولّى **الإسكندرُ الثالثُ** عرشَ القياصِرةِ بعدَ اغْتيالِ أبيهِ، **وبدأ عهدَهُ بتنفيذِ أحْكــامِ الإعْــدامِ بالقتلةِ والمتآمرين** مِنْهُمْ، وكان القيصرُ الجديــدُ جاداً في ملاحقةِ الأحْرارِ والتشْديدِ على رِجــالِ القلمِ والفِكْرِ، لكبْتِ موْجةِ الحريةِ والقضاء علــى دُعاتِها، وشدَّدَ من ضغْطِ الرقابةِ على الجامِعــاتِ والمدارِسِ الثانويةِ ومنــاهِجِ التعليــمِ، وأعْطــى لمالكي الأرضِ سُلطةَ الحكمِ بينَ منْ يعملونَ فــي أمْلاكِهِمْ مِنَ الفلاّحين، فعادَ الإقْطاعُ إلى مظْــهرِهِ الوحْشيِّ، وأصبحَ القيصرُ في عُزْلةٍ عنْ شــعبِهِ المقهورِ.

وخلفَ الإسكندرُ الثالثُ بعـــدَ وفاتِـــهِ عـــام 1894 ابنَهُ **نيقولا الثاني**، وتـــابعَ الســـيْرَ علـــى سياسة أبيهِ، في التنْكيـــلِ بـــالفوضويّينِ ودُعـــاةِ الحريةِ. ولم يلبثْ هؤلاء أن أدركوا عُقْمَ سِـــلاحِ الاغْتيال لخُضوعِ الفلاّحيـــنَ خُضوعـــاً أعمـــى للقيصريّةِ واستبدادها، في حين أنَّ المســـتنيرين المتعلمين قِلَّةٌ مُتفرقةُ الأهواءِ!

ولكنَّ قُوّة جديدَة تظهرُ في روسية فتفْعَلُ ما لمْ يستطِع الفوضويُّون أن يفعلُـــوه: **تلـــكَ هـــي الصناعةُ**، وقد أدّى إنْشاء المصانِعِ إلى ظُـــهورِ **الطبقةِ الوُسطى** التي أصبحتْ تتعلَّـــمُ وتغتَنـــي وترفُضُ أن تُستعْبَدَ، وأقبلَ العُمالُ من المَـــزارِعِ

على المصانعِ، ليعْملــوا جماعــاتٍ جماعــات، وبدأتْ تلك الجماعاتُ تستيْقظُ، وتشعرُ بالإرْهـلقِ والظُلْمِ، فينْشأ التمرُّد في النُّفوسِ، وتحتَ تــأثيرِ هذهِ العوامِلِ الاقتصاديَّةِ الجديــدةِ **ينشــأ حــزبٌ ثوريٌّ هو الحزبُ الاشتراكيُّ الديموقراطيُّ** الــذي يرى أنَّ النِظــامَ النيــابيَّ لا يكْفــي للإصْــلاحِ المنشودِ، **فلا بُدَّ منْ ثورةٍ سياسيةٍ عارمةٍ تقْلــبُ الوضْعَ القائمَ كُلَّه**؛ وقد نشِطتْ دعوةُ هذا الحزبِ في صفوفِ العُمَّالِ، وأعلَنَ أنّهُ ينْبذُ فِكْرةَ العُنْــفِ والاغْتيالِ، وراحَ ينشُرُ مبادئهِ الاشــتراكيَّةِ فــي انتِظارِ الوقْتِ المناسِبِ لتفْجيرِ الثَّوْرةِ.

والحقُّ أنَّ العنفَ لم يلبثْ أن جاء من جهــةٍ أُخرى، ففي الجامِعاتِ كانَ الطُّلابُ يُعانونَ مــن

التضْييق، **وأصبَحتِ الجامعــاتُ أهــمَّ المراكِــزِ السياسيَّةِ في روسية يومذاك**، وحــصَلَ تمــردٌ كبيرٌ في أوْساطِ الطلبةِ بجامعةِ بطرسبورغ فــي عامِ 1899، وفي عام 1901 اغتالَ أحدُ الطــلابِ وزيرَ المعارِفِ لأنَّهُ أمرَ بــالقَبْضِ علــى نحْــوِ مائتيْ طالبٍ منْ جامعتي كييفَ وبطرسبورغ، وقدْ ألحقوا بالخِدمةِ العسْكريةِ عِقاباً لهُمْ على اشــتغالِهِمْ بالسِّياسةِ، وحصلَ تقارُبٌ بينَ الطُّــلابِ والعُمــالِ لمواجهَةِ اضطِهادِ الحكومةِ واســتبْدادِها، وهكــذا كانتْ روسيةُ في مطلعِ القرنِ العشرينَ تضطــربُ فيها النُّفوسُ بالثورةِ على طُغْيانِ القيْصريَّةِ.

وجاءتِ **الحربُ الروســيةُ اليابانيــةُ** عــام 1904 لتفْضحَ عجْزَ الحكومــةِ والجيْــشِ عــن

الصُّمودِ، فاشتدَّ السُخْطُ علـــى القيْصريَّــةِ وراحَ الاشتراكيُّونَ الديموقراطيون يؤلبونَ أنصـــارَهُمْ، **وظهرتْ بوادِرُ الثورةِ العاتيةِ بمصْـــرعِ وزيـــرِ الداخليَّةِ**، وتداعتْ مجالِسُ المقاطعاتِ إلى مُؤتمرٍ حضرهُ مائةُ عُضوٍ، وأعلنوا فيهِ **أنَّ البلادَ تطلـبُ الحريَّاتِ العامَّةِ على القاعِدةِ الدستوريةِ**، كمـــا تُطالِبُ بالإصْلاحِ، وبدعْوةِ جمعيةٍ وطنيةٍ لوضْـعِ دُستورٍ يضمنُ تحقيقَ مطالِب الشَّـعْبِ، وهبَّـتِ المُظاهراتُ في كلِّ بلدٍ لتأييدِ مطـــالب المُؤتَمـرِ وقراراتِهِ، وكان آخرَ تلكَ المُظاهراتِ **مظـــاهرة عُماليَّةٌ ضخْمةٌ تزيدُ على مائتيْ ألـــفِ عـامِلٍ**، تركُوا مصانِعهُمْ في بطرسبورغ، واتَّجَهوا يـــوم

الأحَدِ في التاسِعِ من كانونِ الثـــاني 1905 إلـــى قصْرِ القيْصرِ، في مسيرةٍ سِلْميةٍ، ومعهُمْ نساؤهُمْ وأولادُهُمْ، وقد حملوا الصُلْبانَ والرايات، وعِنْدما بلغوا وسْطَ المدينةِ بُوغِتوا بالرَصاصِ، يُطلقُـــهُ عليهم الجندُ، فيسقُطُ عددٌ كبـــيرٌ مـــن القتلـــى، ويتفرقُ الباقُونَ، وهكذا **دفعَ الشعبُ الروسيُّ فـــي يومِ الأحدِ الدَّامي مَهْرَ الحُرِيَّةِ من دِمائهِ الزكيَّةِ،** وبدأت القطيعةُ بينَ الشعْبِ والقيْصريَّةِ، وانْطلقتِ الثورةُ ترفعُ الراياتِ الحُمرِ، وكثُرتِ الاغتيالاتُ، حتى كانَ عمُّ القيصرِ بينَ من اغتيلوا في تلـــك الأيامِ السوداء، **وعِنْدما رأى القيصـــرُ إصْـــرارَ الشَّعْبِ على نيلِ حريتِهِ لمْ يجدْ بُدّاً من الإذْعانِ،**

وإجابَةِ مطالبِ الشعْبِ الثائرِ، فأعْلنَ في اليـــومِ السابِعِ منْ تشرينَ الأوَّلِ 1905 **قبُولَ الدُّســـتورِ وإقامةِ الحُكْمِ النيابيِّ.**

وعِنْدما اجْتمعَ المجلسُ البرلمـــانيُّ الجديـــدُ (الدوما) في أيارَ 1906 كــــانتْ أكثريتُـــهُ مـــن الاشتراكيِّين الديموقراطيينَ الذين راحُوا يُطالِبونَ بتوزيعٍ عادلٍ للثرواتِ، بعْدَ انتِزاعِها من أيْـــدي كِبارِ المالكينَ، ولكنَّ رئيسَ الحكومةِ **(ستوليبين) كان للمجْلسِ بالمِرصادِ، وقد تريَّث حتَّى هـــدأتِ النُّفوسُ، ثم أعلنَ بعد 72 يوماً حلَّ المجلسِ فلم يُحرِّكْ أحدٌ ساكِناً، وبدأ في روسيةَ عهدٌ مُظلِـــمٌ حالِك، على يدِ السفَّاحِ ستوليبين،** إذ تمَّ إزْهـــاقُ

أرْواحِ الآلافِ دونَ حِسابٍ، وغصّتِ السُّجونُ بآلافِ المُعْتقِلينَ، وأرْسِلَ إلى المنْفى مِئاتُ الآلافِ، **واستمرَّ هذا الليلُ الحالكُ حتى مصْرعِ ستوليبين** برصاصةٍ اغتالتْهُ عام 1911 في مدينةِ كييف، والشعْبُ الروسيُّ في انتِظارِ فجرِ الحريّةِ القريبِ.

* * *

قدّمْنا هذا العرْضَ السَّريعَ للتاريخِ السِّياسيِّ لروسية القيصريّةِ في عصرِ تولستوي، لكيْ يُنيرُ لنا مراحِل حياةِ الكاتِبِ المُفكِّرِ العظيمِ خلالَ هذا العصْرِ الطّويلِ: **فقدْ وُلِدَ ليونُ تولتسوي في عهْدِ نيقولا الأول** وأمْضى طفولتهُ ونشأتَهُ

وتحصيلهُ الجامعيَّ وخدمتَهُ العسكريَّة في ظـــلِّ حكمِ هذا القيصرِ، ثم تفتَّقَتْ عبْقريَّتُهُ ووصلَ إلــى أوْجِ إنتاجِهِ الروائيِّ في عهْدِ **الإسكندرِ الثـــاني**، وعندَ تولِّي **الإسكندرِ الثالث** عـــرشَ القيصريَّـــةِ كانتْ شخصيةُ تولتسوي بعْد دراســـاتهِ الدينيـــةِ والفِكريةِ قد حقَّقَتْ تطوُّراً ذاتياً عميقاً، وأصبحتْ لهُ مِنْ بعدُ رسالةٌ كبيرةٌ ظلَّ يُبشِّرُ بها في عـــهْدِ الإسكنْدرِ الثالثِ وعهدِ ابنهِ **نيقولا الثّاني**، وقضى نحبَهُ في ظِلِّ حكمِ القيْصَرِ الأخيرِ، وهكذا نجـــدُ **تولستويَ يُعاصِرُ أرْبعةً مِنَ القياصِرةِ من أســرةِ رومانوف، ويمُوتُ قبلَ سبعِ سَنوات من انْطِلاقِ الثورةِ الاشتراكيَّةِ الكُبرى، ولكنَّهُ كـــانَ بحــقٍّ**

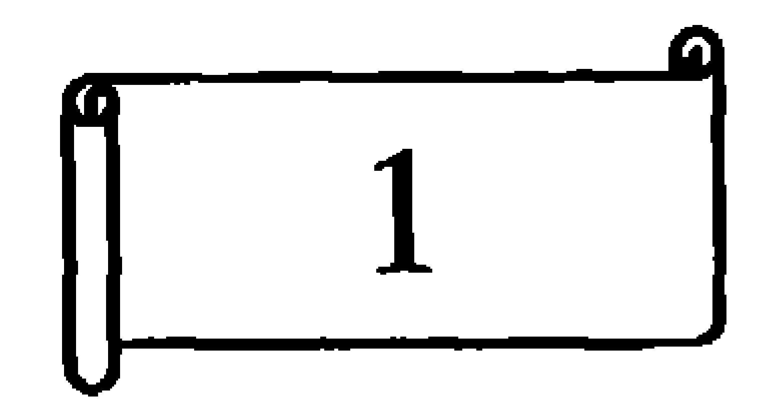
رائِداً ومُمهِّداً وأباً لها، وقد آن لنا أنْ نُرافِقَهُ فـــي مراحِلِ حياتِهِ الطويلةِ وكِفاحِهِ البُطوليِّ في سـبيلِ رسالتِهِ العظيمةِ.

الباب الثاني

من الطُّفولةِ إلى الشبابِ

النشأةُ والتكوينُ

1827 ـ 1855 م



تنحدِرُ أسرةُ تولستوي من أصولٍ ألمانيـــةٍ، فقد هاجَرَ جدُّهُ البعيدُ من أوكْرانيا فـــي القــرنِ الرابعَ عشرِ إلى موسكو، **وبلغ أحدُ أجدادِهِ أرفعَ المناصِبِ** في عهْدِ القيْصـــرِ العظيــمِ بطــرُسَ الأكبر، فمُنِحَ الكثيرَ من الضِّيَـــاعِ والأراضــي،

وأُعطي لقبَ (كونـــت) الــذي أصبــحَ أحفــادهُ يتوارثُونَهُ جيلاً بعد جيلٍ.

أمّا جدُّهُ الأخيرُ (إليا تولستوي) فقــدْ كــان ماجِناً مستَهْتِراً، بدَّدَ الثروةَ الكبيرةَ التي ورِثَــها، كما بدَّد ثرْوة زوجتِهِ الغنيةِ أيضاً، مـــنْ جــرّاء تبْذيرهِ وإسرافِهِ، فاضْطُرَّ إلى قُبولِ وظيفةِ **حــاكِمٍ لمدينةِ قازان**، فانتقلَ بأُسرتِهِ إليْها.

كانتْ أمُّ تولستوي امرأة مثقَّفـــةَ تتحــدَّثُ خمْس لُغاتٍ وتجيدُ العزْفَ على البيانو، وكــانتْ تُجيدُ سرْدَ الحكاياتِ والقصَص بأسلوبٍ أخّــاذٍ، وقدْ حملتْ إلى زوجِها ثرْوة قَوامُها 800 عبدٍ مع ضيعةِ **(ياسنايا بوليانا)** الجميلةِ، التي تقــعُ فــي

ولاية **(تولا)** على بعد 130 ميلا من مدينة **موسكو**، وفي القصر الأنيق القائم على مرتفع من الأرض في تلك الضيعة، بجناحيه العظيمين وأخشابه الزاهية اللون، ولد ليون تولستوي في 28 آب 1828 **فكان رابع ثلاثة من إخوته هم: (نيقولا)**، أخوه الأكبر، و **(سيرجي)** و**(ديمتري)**، وقد شاء القدر أن يسلب هؤلاء الأخوة الأربعة الصغار وأختهم **(ماري)** أمهم البارة الحنون، فماتت عنهم، وليون الصغير دون الثانية بقليل، وشاء القدر أن يعوض الأطفال الصغار عن أمهم بإمرأة عظيمة هي مثال نادر في التضحية والإخلاص، واسمها **(تاتيانا برجولسكي)** وكانت

وُلدتْ يتيمةً فعُنيَ بها جدُّ تولستوي (إليا) وكفِلها، فنشأتْ في بيْتِهِ، وأحبَّتْ (نيقولا) والدَ تولســتوي حبّاً صادِقاً نزيْهاً، وتعمَّدتْ ألا تتزوَّجهُ لتُتيحَ لــهُ الزَّواجَ من امرأةٍ غنيَّةٍ، فلمّا تُوفيتْ أمُّ ليونَ، عادَ نيقولا إلى طلبِ يدِها، فاعْتذرتْ وآثرتْ أنْ يظلَّ حُبُّها لهُ روحانياً مُستديماً، ورضِيتْ أن تعيــشَ معَ أطْفالِهِ الخمْسةِ، تُربِّيهمْ وترعــاهُمْ بِحنانِــها وعطْفِها وسيظلُّ أثرُ **(العمَّةِ تاتيانا) فــي نفــسِ كاتبنا العظيمِ خالِداً**، ويظلُّ شخصُها حيّاً في قلْبِهِ، وصُورتِها ماثِلةً في خاطِرِه: فقدْ كانتْ عنايتُــها بالصغيرِ ليون خيرَ تعويضٍ لهُ في طُفولتِهِ لــهُ عنْ أمِّهِ الرَّاحلةِ، فأحبَّها منْ أعْماقِ قلبــهِ حُبّــاً

يصغُرُ أمامهُ كلُّ حُبٍّ، وظلَّ دائـــمَ الاعْــترافِ بفضْلِها عليهِ، وممّا سيكتُبهُ في مُذكراتِهِ عنْـــها: "لقدْ كان للعمَّةِ تاتيانا أعظمُ الأثرِ فـــي حيــاتي، فمنذُ الطُّفولةِ البــاكِرةِ علَّمتنــي بهْجــةَ الحُــبِّ الروحيِّ وجمالَهُ، لابِكلامِها فحسب، بلْ بِسُـلوكها العمليِّ ومثَلِها الأعْلى".

أمَّا أبوهُ **الكونتْ نيقولا تولستوي** فقدْ كـــان شديد العَطْفِ على أبْنائهِ، وكـــانَ ليـــونُ يشـــعُرُ بطيبةِ قلْبِ أبيهِ، ونفْسِهِ العامِرةِ بالرأفةِ والرِّفْــقِ، وكانتْ هيْبةُ أبيهِ أكْبرَ ما يسترعي انتِباهَ الطِّفْــلِ، وقدْ علَّلَ يوماً سِرَّ تلكَ الهيْبةِ بقوْلهِ: "مـــا أهـــانَ والدي نفْسَهُ من أجْلِ كبيرٍ، وما طأطـــأَ رأســـهُ

لعظيمٍ، وقدْ ظلَّ مُحتفِظاً بروحِهِ المَرِحةِ وثِقتِــــهِ بنفْسِهِ وكرامتِهِ، ممّا ملأ نفْسي محبةً لهُ وإعْجابــاً به" **وسيرثُ ليونُ عن أبيه جُملةَ صِفاتِهِ،** فينشـــأُ عطوفاً رؤوفاً طيِّبَ القلْبِ إلــــى شِــدَّةِ اعتِــدادٍ بالنفْسِ، تدفعُهُ إلى المباهاةِ والزّهُوِّ والتكبُّرِ علــى غيْرِهِ أحْياناً، وسنشْهدُ فيما بعدُ جِــهادهُ العظيــمَ لنفْسِهِ، للتغلُّبِ على تِلْكَ النزعاتِ الموْروثةِ فـــي طبعِهِ وسُلوكِهِ.

2

عِندما بلَغَ الطِّفْلُ الصغيرُ الخامِسةَ من عمرِهِ انضمَّ إلى اخوتِهِ ليبْدأ الدِّراسةَ، وكانَ الأبُ قـــد أحْضرَ إلى القَصْرِ مُربِّياً ألمانياً لتعليمهِمْ اللغـــة الأجنبيةَ بالحِوارِ والمُمارسةِ، لا بِـــالقِراءةِ فـــي الكُتُبِ وحدَها، وكانَ المُربّـــي الألمــانيُّ رجُــلاً مستقيمَ الخُلُقِ كريمَ الطَبْعِ، عَطوفــاً علـــى مـــنْ يُربِّيهِمْ، شديداً عليْهِمْ أحْياناً فـــي غـــيرِ عُنْــفٍ، مُخْلِصاً في عملِهِ، ولِهذا كانَ أثرهُ في نفسِ ليــونَ كبيراً، إذْ وجَدَ فيهِ الصبيُّ قُدْوة حسنةً بأخْلاقِـــهِ وصِفاتِهِ، واستفادَ منْ دُروسِهِ أبْلغَ الفائِدةِ.

وكانَتْ حُجْرَةُ الدِّراسةِ في القَصْرِ تجمَعُ أبناء الكونت، وكان ليونُ شديدَ الحُبِّ لاخوتِهِ جميعـــاً، وكانَ يُحِبُّ اللِّعِبَ معهُمْ، عِنْدما تنتَـــهي ســاعاتُ الدِّراسةِ، ويأذنُ لهُمْ مُربّيـــهِمْ الألمـــانيُّ بِمُغـــادرةِ الحِجْرةِ، لينالوا حظَّهُمْ مِنَ اللعِبِ والرياضةِ!

كانَ أخوهُ الأكبرُ نيقولا واسعَ الخيالِ، يبتَكِرُ ألْواناً مِنَ الألْعابِ، فيجِدُ فيها الصِّغارُ ما يبْـــهِجُ نُفوسَهُم ويملؤها مرحاً، وكان يـــروي لإخْوتِـــهِ الحكايـــات والقِصـــص الجميلـــة المُختَرَعـــةَ، ويحشُوْها دُعابات وفُكاهاتٍ.

وأمَّا أخوهُ الثاني سيرجي فكانتْ لـــهُ منـــذُ طفولتِهِ هيئةٌ أرستقراطية واضحةٌ، وكان شـــديد الإعْجابِ بنفْسِهِ وهِنْدامِهِ، فكانَ ليونُ يتمنَّـــى أن

يكونَ لهُ مثلُ وجاهَتِهِ وشكْلِهِ، وكانَ يُحـــاوِلُ أنْ يُقلِّدهُ فيما يعْمَلُ، فلا يفُوزُ بِما يُريدُ، لأنَّهُ لمْ يكُـنْ لهُ ما لأخيهِ منْ جمالِ الطَّلْعةِ وحُسْـــنِ السِّـمةِ، وكانَ هذا كلُّهُ مصدر آلامٍ للصبِّيِّ في طُفولتِهِ، ثُمَّ في مرْحلةِ شبابِهِ، وسيظلُّ الكاتِبُ العبْقري دائـــمِ الإحْساسِ بحِرمانِهِ من الوسامةِ وجمالِ الطَّلْعـــةِ، كثير الانْطِواءِ على نفْسِهِ من أجْلِ ذلـــــكَ، فـــي مُستقبلِ أيّامِهِ.

وكان أخوهُ ديمتري أقرَبَ الثلاثةِ إليْهِ سـنّاً، وكان يأسرهُ بهُدوئِهِ وابتِسامتِهِ الحُلوةِ وعاطِفتِـــهِ الرقيقةِ الحانيةِ، ولكنَّ ليون لا يذكرُ عنـــهُ شـيئاً كثيراً في كتاباتِهِ.

وقد وصفت ماري أخاها الأصْغر ليون بأنَّهُ كان مَرِحاً شديدَ المرَحِ، كثيرَ الابْتِســـامِ والأدبِ، رقيقَ الإحْساسِ، ولمْ يكنْ مرّةً فظاً معَ أحدٍ مـــن الأطْفالِ، وعِنْدما كان يغضَبُ لأمرٍ مـــا كـــانتْ دُموعُهُ تنهلُ منْ عيْنيْهِ، وإذا ضايقهُ أحدُ اخْوتِـــهِ كان يعْدو بعيداً، ويسْتسلِمَ إلى الصُّراخِ طَويلاً.

وكانتْ **أجْملَ** مسراتِ **الصَّبيِّ في طُفولتِـــهِ** بهْجةُ نفسِهِ في أعْيادِ الميلادِ، وما تحشُدُ الأُسْــرةُ لَها مِنْ مظـــاهِرِ الفـــرحِ والطَّعـــامِ والشَّـــرابِ، والثِّيابِ الجديدةِ، كما كانَتْ مشاركةُ الصبيِّ مـــع اخوتِهِ في نزهاتِ الصيدِ مع أبيهمْ، على ظُـــهورِ الخيْلِ أوْ في العرباتِ الجميلةِ، منْ كُبْرى مبـــاهِجِ

طُفولتِهِ ومسرّاتِها، وعلى هذا كانتْ طفولةُ كاتبنا العظيمِ تفيضُ بالسَّعادةِ، وقدْ وصفَ هُـــوَ نفسُـــهُ حلاوتَها في أوَّلِ كِتابٍ لهُ وهُو "عهْدُ الطُّفولـــةِ" فقالَ:

"ما أسْعدَ هاتيكَ الأيّام الحُلْوةَ، أيّامَ الطُّفولـــةِ التي لاتنْمحي ذِكْراها، وكيف ينســـى امـــرؤ أنْ يُحبَّ ذِكرياتِها وأنْ ينعمَ بِها! إنَّ هذهِ الذِكريـــاتِ لتُنْعِشُ روحي وتَسْمو بِها، وهي المنْبعُ لأعْظـــمِ فيضٍ من السُّرورِ يغْمرُني".

وعِنْدَما أتمَّ ليون السنةَ الثّامنةَ من عمرِهِ عامَ 1837 **انتقلتِ الأُسرةُ إلى موسكو، ليُتابِعَ الأوْلادَ دِراستهُمْ فيها**، ويبدو أنَّ صاحبنا لم يكُنْ مُرتاحاً

إلى تركِ مرابعِ طفولتِهِ السعيدةِ في (**ياسنايا بوليانا**) فلمْ يَنْشطْ إلى دُروسِ أستاذِهِ ومُربّيهِ الفرنسي الجديدِ في موسكو، واضطُرَّ الأستاذُ إلى حبْسِ تلميذه المُهْمِلِ في حُجْرةٍ، وإلى تَهْديدِهِ بالضرْبِ بعصاهُ، وكانَ أثرُ هذا العِقابِ في نفْسِيَّةِ الصبيِّ قاسياً، فأحسَّ بمزيجٍ من الغضبِ والاحتِقارِ والاشْمِئزازِ، نحْوَ مُربّيهِ الجديد، ونحْوَ القسْوةِ والعُنْفِ والعِقابِ إجْمالاً. وكان المُربِّي الفرنسيُّ مع ذلك مُوقِناً من موْهِبةِ الصبيِّ وذكائهِ وكان يُسمِّيه "**مُوليير الصغير**" لِما كانَ ليونُ يمتازُ بهِ من حسٍّ مُرْهفٍ ومُلاحظةٍ دقيقةٍ وفِطْنةٍ وإدْراكٍ.

كانَ ليونُ منذُ طُفولتِهِ مشـبُوبَ العاطِفـةِ، كثيرَ الانفِعالِ، يُصغْـي بِكُـلِّ جوارِحِـهِ إلـى الموسيقى وإلى القصَصِ والحكايـاتِ، ويُحِـسُّ بالنَّشْوةِ تغمرهُ وتجعلُهُ يسترسِلُ فـي أحْلامِـهِ، وكانتْ عواطِفُ الحُـبِّ والغـيرةِ تمـلأُ قلبـهُ الصَّغيرَ، وتسيلُ دُموعُ عينيْهِ، **وكمْ مِـنْ طِفلـةٍ أحبَّ** وشعَرَ وهُوَ يُرافِقُها بِدُموعِ الفرحِ تنهلُّ على خدَّيْهِ مِنْ فرْطِ نشْوتِهِ، **وقدْ بلغتْ غيرتُـه يومـاً على إحْداهُنَّ وهي تتحدَّثُ إلى غُلامٍ غيره، إلـى أن دفَعَ بِها مِنَ الشُّرْفةِ فسقَطَتْ وأُصيبَتْ بعـوَجٍ لمُدَّةٍ طويلةٍ، وشاءَ القدر أن تصير هذه الطِفْلـةُ أُمَّ زوجتِهِ**، فيتزوَّجُ بعْدَ ربُعِ قرنٍ مِـنْ إحْـدى بناتِها.

ولمْ يَسعدِ الصبيُّ بمُقامهِ في موسكو، ففــــي صيْفِ العامِ نفسِهِ (1837) **يموتُ أبُوه، وتتبعُــــهُ أمُّهُ (جدَّةُ ليون)** حُزْناً على ولَدِها بعْــدَ أشْــهُرٍ، **ويشعُرُ الصبيُّ بيدِ الموتِ تعْصِرُ قلبهُ الصَّغــيرَ**، وتدفعُ بِهِ إلى التفكيرِ في الموْتِ، وهُوَ بعْدُ فــــي تِلْك السِّنِّ الغضَّةِ، ولمَّا يبْلُغِ التاسِعَةِ مِنْ عُمُــرِهِ، وقدْ أصبحَ مُنْذ اليومِ **يتيمَ الأبويْنِ!**

وصارت الوصاية على الأولاد إلى عمتــهم ألين (الكونتس أوستن سيكن) وكانت امرأة تقيــة صالحة تعطف على الفقراء وترأف بخدمها، وقد خلفت في نفس ليون شعورا عميقـــا بــالإجلال والإكبار، وهي التي علمته كيف تســمو النفــس

الفاضلة وتطيب بالدين، ولكن العمة ألين تقضـــي نحبها في خريف عام 1841، فتنتقـــل الوصايـــة على الأولاد إلى عمة أخرى لهم هـــــي الســيدة يوشكوف، زوجة أحد الملاك من ذوي الثراء في قازان، وينتقل الأولاد إلى هذه المدينة ليكونــــوا تحت رعاية عمتهم (يوشكافا) وقد أصبح ليـــون في نحو الثالثة عشرة من عمره.

3

كانت العمة (يوشكافا) امرأة طيبة القلب، على حظ متواضع من الثقافة، وكان زوجها الثري يقضي أكثر وقته في استماع الموسيقى ولعب الورق، وكان يجمع أصحابه في بيته لذلك، فتأثر الصبية بالجو اللاهي الجديد، وكان لذلك سوء أثره في دروسهم.

وكان أكثر ما يشغل ليون في قازان انصرافه إلى المطالعة، فقد أصبح يلتهم الكتب التهاما، وقد اغرم بقصص ألف ليلة وليلة، وشعر بوشكين، وفي قراءته للإنجيل استهوته

قصة يوسف، ولم يكد يبلغ الخامسة عشرة من عمره حتى راح يقرأ **مؤلفات روسو**، ثم أصبح مسحورا بها، واتجه بعد ذلك إلى **قراءة الفلسفة**، وقد بلغ السادسة عشرة، وقد شغلته فكرة الوجود والروح ومهمة الإنسان في هذا الكون، ومصيره والحياة الأخرى إلخ.. ووجد الفتى نفسه منساقا إلى التشاؤم، فيهمل دروسه، ويطلق العنان لشهوة جسده العارمة، وينغمر في البطالة واللهو، وسيظل ليون منذ يفاعته قوي البدن، متدفق الحيوية، ظامىء الرغبة إلى المرأة، على الرغم من شعوره الدائم بافتقاره إلى الوسامة وجمال الطلعة، وقد **ساقه الشيطان يوما في طريق الإثم** فأوقع في حبائله فتاة عذراء من

خدم عمته، وبلغ ذلك عمته فطردت الفتـــاة مـــن بيتها، فتلقاها الشارع وأسلمها إلى الرذيلـــة، ثـــم لاقت حتفها في صورة منكرة حزينـــــة، وكـــان لمأساتها البشعة أثر كبير في نفس الفتى المذنـــب الآثم، فظل الندم يخالجه على ما جنت يداه، غير أن ندمه لم يمنعه في شبابه من معـــــاودة الإثـــم والاستسلام إلى الرذيلة، في وقت كان الصـــراع فيه بين نفسه وشيطانه لاينقطع.

وعِنْدما بلَغَ ليونُ السادِسةَ عشْرة مِنْ عُمـــرهِ التحقَ بِجامِعَةِ قازان، وانتسبَ إلى قِسْمِ اللغـــاتِ الشرقيَّةِ، ولكنَّهُ كانَ في ساعاتِ الدَّرْسِ ينصرِفُ عمَّا يقولُهُ الأساتِذةُ، ويُقلِّبُ عيْنيْهِ ساخِراً منْ كُـلِّ

ما يرى، ويستسلمُ إلى مايطوفُ برأسِهِ مِنْ أحلامِ الشَّبابِ وأوْهامِهِ، وكانَ أكبرَ ما يهتمُّ بـــهِ فتانـــا الجامعيُّ أنْ يلبسَ أجْمَلَ الثِّيابِ وأغْلاهـــــا، وأنْ يلْعبَ الميْسَرَ ويشْربَ الخمْرةَ مع جماعاتٍ مِـــنْ لداتِهِ، وأنْ يُدخِّنَ الطِّباقَ في غُليونٍ جميلٍ غـــالي الثَّمنِ، وأنْ يتطيَّبْ بأغْلى العِطْرِ، ويدهُنَ شـــعْرهُ ويُلَمِّعَهُ، وأنْ يتكلَّمَ الفرنسيةَ في أناقةٍ مُتكلَّفةٍ! وقدْ كـــانَ حريصـــاً علـــى أنْ يُخـــالِطَ الأوْســـــاط الأرستقراطيَّة في المدينـــة ويحضُـــرَ الحفـــلاتِ العامَّةَ لِيجذِبَ الأنْظارَ إليْهِ بمظْهرِهِ الأنيقِ، وقُوَّةِ شخْصيّتِهِ، ومُشـــاركَتِهِ فـــي أحـــاديثِ النَّـــاسِ، ومُعارضةِ آراء المُتحدِّثين مِنْهُم، للتدليـــلِ علـــى

أصالتِهِ وعُمْقِ تفْكيرِهِ! وكانتْ أحْلامُ شبابِهِ تدفعُهُ إلى مُلاحقةِ الفتياتِ، وليْسَ عَجيباً أن يغدوَ الفتى، بعْدَ إسرافِهِ في عبثِهِ ولهْوِهِ، طالِباً فاشِلاً مُخْفِقاً في دِراستِهِ!

وتركَ ليونُ كلِّيَّةَ اللُّغاتِ الشَّرقيَّةِ في عامِهِ الجامعيِّ الثاني والتحقَ بكُليَّةِ القانونِ، وكانَ ميّالاً إلى القانون المقارن، والقانونِ الجنائيِّ ودِراسةِ عقوبةِ الإعْدامِ، فأقْبلَ على قِراءتِها، وأهْملَ العُلومَ الأُخْرى، وكان الفتى يجدُ المتعةَ في دِراسةِ ما يُحبُّ، فلا يقِفُ عندَ حُدودِ المَناهِجِ المُقرَّرةِ، ويُهْمِلُ ما لا يُحِبُّ وينْصرِفُ عنْهُ، في عِنادٍ واستِخْفافٍ بالامْتِحاناتِ الجامعيَّةِ ونتائجِها.

وفي آذار مِنْ عامِ 1847 يُصيبُ جسمَهُ المرضُ، بعدَ أنْ أنهكَهُ بالإسْرافِ في ملذاتِهِ، فيدخُلُ المستَشْفى، وهناكَ **يبدأ بِكتابةِ مذكراتِهِ اليوميَّةِ** التي ستغْدو أهمَّ مصادرِ تاريخِ حياتِهِ.

وفي أيار منْ ذلكَ العامِ **يترُكُ ليونُ الجامِعةَ دونَ أنْ يحْصَل على شهادةٍ ما، وقدْ توقَّفَ عِنْدَ هذا الحدِّ مِنَ التعْليمِ الجامعيِّ.**

كانتْ تركةُ أبيهِ قدْ قُسِّمتْ قبلَ عامٍ بينَهُ وبينَ إخْوتِهِ، فكانَ نصيبُهُ مِنْها **ضيْعةَ (ياسنايا بوليانا) معَ أربعِ ضِياعٍ أُخْرى**، تبلغُ مساحتُها 405 آلاف مِنَ الأفْدِنةِ، مع 350 مِنَ الفلاَّحينَ الذُكورِ ومنْ ورائِهِم أسَرُهُم، وقدْ عزمَ صاحِبُنا

على العَوْدةِ إلى أمْلاكِهِ، ليتولّى إدارتَها بنفسِهِ، وينْهضَ بإصلاحِ حالِ فلاّحيه فيْها، ليُنقذهُمْ مِمَّا هُمْ فيهِ من جهْلٍ وبُؤسٍ.

ويعودُ الفتى وقدْ أشرفَ على العِشرينَ إلى ضيْعتِهِ ليبدأ **خطّتَهُ في الإصْلاحِ**، وينصرفَ في عزيمةٍ إلى بِناء أكْواخٍ جديدةٍ لسُكْنى فلاّحيه، ويُنشىءُ لأبنائِهِم المدارِسَ، وكانتِ العمَّةُ تاتيانا تنْظرُ في دهْشةٍ إلى أعْمالِهِ، وتحْسَبُ أنَّها نزْعةٌ جديدةٌ مِنْ نَزعاتِ الشَّبابِ لا يلبثُ أنْ ينْصرِفَ عنْها. والحقُّ أنَّ الفلاّحين أنفُسهم أعرَضوا عنْ إصْلاحاتِهِ، وكانَ الفتى المُصلِحِ يتألَّمُ لِما يرى في وُجوهِهِمْ مِنْ علاماتِ الشَّكِّ والعِنادِ والإنْكارِ، وهُمْ يصِفونَ الأكْواخَ الجديدةَ بأنَّها سُجون،

ويتبرّمونَ مِنْ مدارِسهِ لأنّـــها تشـــغَلُ أبْنـــاءهُمْ وتحرِمُهُمْ مِنْ مُساعدَتِهِم وعونِـــهِمْ فـــي أعمـــالِ الزّراعةِ، ويُحِسُّ ليونُ بالخيْبةِ والمرارةِ لإخفاقِ مَشْروعِهِ الإصْلاحيِّ، فينصَرِفُ عنهُ ويرْتدُّ إلـــى حياةِ اللهْوِ والعَبَثِ والمُجونِ والميْسرِ، ثمَّ لا يلبثُ أن يُغادِرَ ضيْعتَهُ إلى موسكو أواخِرَ عـام 1848، حيثُ يقضي عِدَّةَ أشهرٍ مُطلقَ العِنانِ مُسترسِـــلاً وراء شهواتِهِ، ثُمَّ انتقَلَ إلى بطرســـبورغ، وقــدْ عزمَ على مُعاودةِ دِراسةِ الحُقوقِ في جامِعتِـــها، وكتَبَ إلى أخيهِ في شُباط 1849 بما جـــدَّ مِـــنْ عَزْمِهِ، غيْرَ أنّهُ في شهْرِ أيار كتبَ إلـــى أخيـــهِ ثانيةً، يصِفُ لهُ سُوء حالِهِ، وقدْ أنْفقَ كُلَّ ما معَهُ في اللهْوِ واللّعِبِ، وتورّطَ في دُيونٍ كثيرةٍ.

ولمْ يجدِ الفتى اللاهيْ بُدّاً مِن العوْدةِ إلـــى ضيْعتِهِ، نادِماً على إسْرافِهِ في العبثِ والمُجـونِ، وعازِماً على التِماسِ الهُدوءِ والرّاحةِ والتفــرُّغِ لشُؤونِ ضِياعِهِ وأمْلاكِهِ!

ولكنَّ الفتى لنْ يصبرَ على المُقامِ في ضيعتِهِ الهادِئةِ، وسيظلُّ طوالَ السنواتِ الثلاثِ يُوالـــي رِحْلاتِهِ إلى موسكو وبطرسبورغ، يحمِلُ في كُلِّ رحلةٍ معهُ ما يتجمَعُ لديْهِ مِنْ مالٍ، ليُنفِقهُ علـــى لهْوِهِ وعبثِهِ، حتّى إذا أفلسَ واستدانَ ارتدَّ إلـــى الضّيعةِ مِنْ جديدٍ، وقدْ أدْركَ أنَّ أكــبرَ رذائِلِــه آفتانِ هُما: **لَعبُ الميْسرِ وشِدَّةُ الغُرورِ!**

إلاّ أنَّ الفتى المُنْغمسَ في المُجونِ واللّـــهْوِ كانَ يفتأ **يُوالي قراءةَ القِصصِ، ويلتهِمُ مُؤلَّفــاتِ**

ديكنز وجوجول وغيرِهِما، ويُمنّي نفسَهُ بأن يكتُبَ قصصاً مُماثِلةً، وكانتِ العمَّةُ تاتيانا تُشجِّعُهُ وتقولُ لهُ: "إنّي لأعجبُ يا عزيزي ليونَ كيفَ لا تكتُبُ روايةً ولكَ مثلُ ما لك مِن خيالٍ!" وعِندما انتهى مِنْ قراءةِ رائعة ديكنز (**دافيد كوبرفيلد**) التي يصِفُ فيها مشاهِدَ مِنْ طُفولتِهِ، خطرَ للفتى أنْ يكتُبَ أيّام طفولتِهِ، فانكبَّ على الكِتابةِ حتّى أتمَّ باكورة آثارهِ الخالِدة (**عهدُ الطُّفولةِ**)، ولكنَّ ميْلَ الفتى إلى اللهْوِ والميْسرِ والنِّساءِ والخمْرةِ كان يدعُوهُ دائِماً إلى مُعاودةِ حياتِهِ الماجنةِ، حتى ضاق ذرْعاً بسُوء حالتِهِ، وكان **أخوهُ الكبيرُ نيقولا ضابِطاً في الجيْشِ الرُّوسيِّ في القوقاز،**

وحضرَ في إجازةِ عيدِ الميلادِ عام 1851 إلـــى ياسنايا بوليانا، فهالهُ ما رأى من سُوء حالِ أخيـهِ وضيقهِ، فدعاهُ إلى الرَّحيل معهُ إلـى القُوقـاز، ليحيا هُناكَ حياةً جديدة، يتخلَّصُ فيها مِنْ كلِّ مـا يُعانيهِ من ضيقٍ، واستجابَ الفتى لِدعوةِ أخيـهِ، ليبدأ صفحةً جديدةً مِنْ حياتِهِ.

4

وصلَ ليونُ تولستوي بصُحْبَةِ أخيهِ الضابطِ نيقولا إلى القوقاز، ونزلا في مدينةِ (ستاري يورت)، وقدْ أثارَ منظرُ تلكَ الجِبالِ الشامِخةِ إعْجابَ الشابِّ فراحَ يصِفُ لِعَمَّتِهِ تاتيانا في رسائِلِه روْعةَ ما يرى وصْفاً عامِراً بالنَّشْوةِ والحماسَةِ، وقدْ تملَّكَهُ الفرحُ والنشاطُ لِحياتِهِ الجديدةِ عِنْدَ سُفوحِ تِلْكَ الجِبالِ الشاهِقةِ، وتحسّنتْ صِحَّتُهُ تحسُّناً ملْحوظاً، فقامَ بِعِدةِ رِحلاتٍ للصيدِ، وازدادَ إعْجاباً بِموقِعِ تِلْكَ البِلادِ ومناظِرِها الفاتِنةِ، كما أُعْجِبَ بأهلِها وأخْلاقِهِمْ وعاداتِهِمْ.

ولكنَّهُ وجدَ نفْسَهُ بعْدَ حيـــنٍ يُعـاودُ لَعِـبَ الميْسر، ويخسرُ في ليلةٍ واحدةٍ مئاتِ الروبـلات، فازْدادَ كدرُهُ، وقد أيْقنَ أنَّ الهِجرة إلى القوقازِ لـم تُخلِّصهُ مِنْ أهْواءِ نفْسِهِ ومُيولِها السيِّئةِ، وعرضَ عليْهِ أخوهُ أنْ يتطوَّعَ في جيْشِ القوقاز، ليشْـغلَ نفسَهُ، فقَبِل وأرْسِلَ إلى مدينة (تفليـسَ) حيـثُ أدّى امتِحاناً أهَّلَهُ للالتِحاقِ مُتطوِّعـــاً بـالجَيْشِ، وأُلحِقَ بفرقةِ المدْفعيَّةِ الرابِعـــةِ فـــي (ســتاري يورت) في شُباطَ 1852، وقد تمكَّنَ بِبسالتِهِ مـــن لَفْتِ الأنْظارِ إليْهِ، ولكِنَّ إقْبـــالَ الضبُــاطِ مِـنْ زُملائِهِ على الميْسرِ أغْـراهُ بـاللعِبِ، وتوالــتْ خسائِرُهُ التي كان يكتُبُ إلى عمَّتِـــهِ بأخبارِهـــا، وكانَ مع ذلِكَ يُوالي الكِتابةَ، وفي عددِ تشـــرينَ

الثاني مِنْ مجلَّةِ (المُعاصِرِ) الشَّهيرةِ، منْ عــــامِ 1852 نُشِرتْ قصَّتُهُ (عهدُ الطُّفولـــةِ) وحظيــتْ بثناءِ النُّقادِ وأهلِ الفنِّ عليْها، وفـــي مُقدِّمتِـــهم تورجنيف وديستويفســـكي، وتنبـــأوا لِكاتِبِـــها (ل.ت) بمُستقبَلٍ مجيدٍ، وطابتْ نفسُ الشابِّ بــهذا النَّجاحِ، وقدْ كانَ "عهدُ الطُّفولةِ" عملاً فنيًّا مــــزجَ فيهِ الكاتِبُ الناشِئُ بينَ الحقيقةِ والخيـــالِ، ففيــهِ أشياءٌ من سيرةِ طُفولتِهِ ممْزوجةٌ بِالخيالِ، ببراعــةٍ وأصالةٍ وصِدْقٍ فنِّيٍّ، وكانَ نجاحُ تولستوي العظيمُ في عملِهِ الأوَّلِ هذا حافِزاً لَهُ إلى كتابةِ ذكْريـــاتِ صِباهُ في "عهْدِ اليفاعةِ" فأكبَّ على العَمَلِ بِنشـــاطٍ وهِمَّةٍ في تحقيقِ مجْدٍ أدبيٍّ كبيرٍ.

وبدأ الشابُّ يسأمُ حياةَ الجنْديةِ، ولـــوْلا أنَّ القوقازَ بِمناظِرِها وأهْلِها وأحْداثِ الحيـــاةِ فيـــها كانَتْ تُزودُهُ بِمادةٍ طريفةٍ لفنِّهِ القصَصِـــيِّ لمـــا أطاق الصبرَ على العيش هُناك، ولوْلا أنَّهُ كـــانَ يقْضي أكْثرَ أوْقاتِ فراغِهِ في قِراءةِ الكُتبِ لكانَتْ شكواهُ مِنَ الخُمولِ والكَسَلِ تُنغِّصُ عليْهِ أيَّامَـــهُ، وقدْ كتبَ في مُذكّراتِه في شـــهرِ آذار 1853: "إنَّ الخِدْمةَ في القوقازِ لمْ تجُرَّ عليَّ إلا المصـــاعِب والكَسلَ ومعْرِفةِ غيْرِ الأخيارِ!"

وكثُرتْ تأمُّلات الشابِّ وهُوَ في القوقازِ فـــي الدّينِ والإلهِ والإيمـــانِ بوُجـودِ الله، والجِسْـمِ والرُّوحِ، وفي مُذكّراتِهِ لتِلْكَ الأيَّامِ أصْداءُ هـــذهِ التأمُّلات، وهِي تُصوِّرُ حيْرةَ الشابِّ بيْنَ الشـــكِّ

والإيمانِ، لتكوينِ صُورةٍ فـــي نفسِــهِ عــن الله، وخُلودِ الرُّوحِ، ويومْ البعثِ والحِســـابِ لِجَــزاءِ الإنْسانِ على عملِهِ، وهذِهِ التأمُّلاتُ الدينيةُ سيعودُ إليْها تُولستوي في كهُولتِهِ كما ســـنرى عِنْدمـــا ينصرِفُ عنِ الفنِّ إلى الدينِ ومسائلِهِ ودِراســـةِ الكِتابِ المُقدَّسِ.

وضاقتْ نفسُ تولستوي آخر أيّام إقامتِهِ فـــي القوقازِ، وهُوَ يحمِلُها على الصبرِ والانتِظارِ، إلى أنْ أُتيح لهُ في شهْرِ كـــانونَ الثـــاني 1854 أنْ يترُك القوقاز، **فنُقِلَ إلى جيْشِ الدّانوبِ** بناء على طلبِهِ! وعادَ الشابُّ في إجازةٍ إلى ياسنايا بوليانـــا بعْدَ أنْ غابَ عنْها ثلاثَ سنواتٍ طويلةٍ.

وفي آذار التَحقَ تولستوي بجيشِ الدَّانوابِ، في بوخارِسْت، وهو في السادسةِ والعِشْرين، ليشْهدَ حرْباً كبيرة، ويكتسِبَ مِنْ مُشاركتِهِ فيها خبرة جديدة، وسيستغِلُّ خبرتَه هذهِ في معارك القرْمِ خيْرَ استِغْلالٍ عِنْدما يكتُبُ فيما بعْدُ قِصتَّهُ العُظْمى (الحربُ والسّلامُ) فينْقُلُ إلى القارىء صُوراً حيةَ للحرْبِ، تُذهِلُهُ بواقِعيّتِها وصِدقِها. وانضم تولستوي إلى الجيشِ الذي كانَ يُحاصِرُ مدينة (سلستريا) فشهِدَ في هذا الحِصار ما اخْتزنَهُ في ذاكِرتِهِ العجيبةِ مِنْ مناظِرِ الموْتِ والدَّمارِ، وسُلوكِ الضبَّاطِ والعلاقاتِ بينَهُمْ، وحياةِ الجُنودِ في قلْبِ النَّارِ ليستفيدَ مِنْ كل ذلِكَ في فنِّهِ

العظيمِ عِنْدما يُؤلِفُ (الحربُ والسَّلامُ) فيُقدِّمُ أرْوعَ روايةٍ في الأدبِ الرُّوسيِّ كُلِّهِ.

وفيْ شهرِ تشرين الثاني 1854 انضمَّ تولستوي إلى المُدافِعينَ عن حِصْنِ سباستبول، وكانتْ جُيوشِ ثلاثِ دُولٍ تُحاصِرُهُ حِصاراً عنيفاً، وهِيَ تركيةٌ وانكلترةٌ وفرنسةٌ، وكانَ الرُّوسُ يستميتونَ في الدِّفاعِ عنِ الحصْنِ، وراحَ تولستوي يتنقَّلُ مِنْ حصْنٍ إلى آخر أثْناء القِتالِ، مُقْتحِماً الأخْطارَ بِبسالةٍ وإقدام وقُوَّةٍ بدنيَّةٍ خارِقةٍ أدْهشتْ أقْرانَهُ ولفتَتْ إليْهِ الأنْظارَ.

وكانَ الشابُّ يعاودُ لعِبَ الميْسر، ويتكبَّدُ الخسائِر، وفي مطْلَعِ عامِ 1855 بلغَ مِنْ خسارتَِهِ

أنَّهُ كتبَ إلى وكيلِهِ في ضيْعةِ ياسنايا بوليانــا أنْ يبيعَ بيتَهُ فيها، ليدفعَ ديونهُ التــي غــرِقَ فيــها، وكانَ الشابُ يُفضي إلى مُذكَّراتِهِ بندَمِهِ، ويلُــومُ نفْسَهُ أعنفَ اللَّوْمِ على إدْمانِهِ اللعِبَ وعجزِهِ عـنِ التخلُّصِ مِنْ هذه الرّذيلةِ الكبيرةِ!

والعجيبُ أنَّ تولستوي لم يكُنْ يُـــهْمِلُ فنَّـــهُ الأدبيَّ معَ كُلِّ ذلك، وقدْ كتبَ قِصَّةَ (سباســتبول) ونشرها في مجلةِ (المعاصرِ) فاستقبلتْها الأوْساطُ الأدبيَّةُ في بطرسبورغ ببالغِ التقديــرِ، وحظـــي تولستوي على أثرِها بشُهْرةٍ كبيرةٍ ، وقال عنْــها تورجنيفُ "إنَّها مُدْهِشــةٌ، وإنَّ الدُّمــوعَ كــانتْ تتساقطُ مِنْ عينيَّ وأنا أقرؤها" وقرأها القيصـــرُ الجديدُ (الإسكندر الثاني) الذي تولّى العرشَ بعــدَ

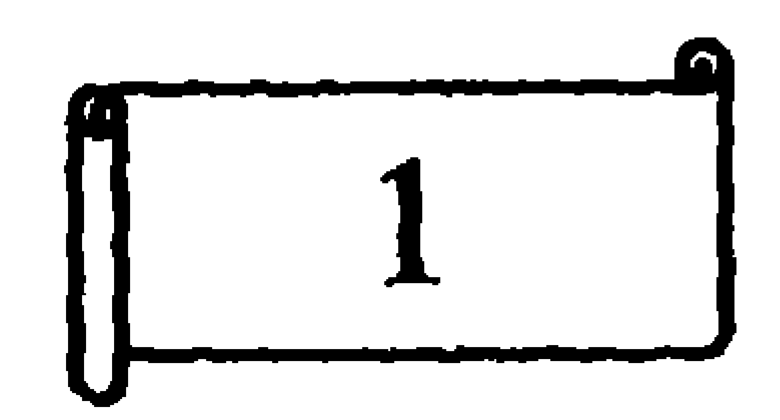
وفاةِ نيقولا الأوّلِ في هذا العامِ (1855)، فنالتْ إعجابَهُ، وحرصاً على حياةِ كاتِبِها الموْهوبِ أرْسلَ القيْصَرَ كِتاباً سِرِّياً إلى القائدِ العامِّ يُوصيْهِ بإبعادِ تولستوي عن مواطن الخطر، كيلا تفقد روسية هذا الكاتِبَ العظيمَ الذي تُبشِّرُ موْهِبتُهُ بِعبقريَّةٍ كبيرةٍ.

ولمْ يلبثْ تولستوي، عِنْدما قاربتْ الحرْبُ منْ نِهايتِها، أنِ اخْتتمَ حياتَهُ العسكريَّةَ، وارتدَّ إلى الحياةِ المدنيَّةِ وهُوَ في السابِعةِ والعِشْرينَ، وعادَ إلى بطرسبورغ، ليجِدَ نفسهُ فيها أديباً مرموقاً ذا شُهْرةٍ كبيرةٍ، لا يستطيعُ شابٌّ في مِثْلِ سِنِّهِ أن ينالَها إذا لمْ يكُنْ واحِداً منْ أفْذاذِ الموْهوبين والنّوادرِ المُبرّزين.

الباب الثالث

بحثٌ عن القمّةِ في رحابِ الفنِّ

1855 — 1863 م



عِنْدما تركَ تولستوي سباستبولَ وحياةَ الجنديَّةِ، وعادَ **إلى بطرسبورغ** قصدَ من فورِهِ إلى بيْتِ **تورجنيف**، وكانَ قدْ تلقّى دعوةً منهُ للإقامةِ عندهُ في ضيافتِهِ، فتلقّاهُ الأديبُ الكبيرُ بترْحابٍ ومودّةٍ، وقدَّمهُ إلى الأوْساطِ الأدبيَّةِ والفنِّيَّةِ في بطرسبورغ، وكانَ تورجنيف يومذاك

زعيمَ كتّاب روسية بعدَ وفاةِ جوجــــول، ولكــنَّ الوفاق بين الرجلينِ لمْ يدُمْ طويلاً، إذْ سُرعان مـا اختلَفا، لاختِلافِ مزاجيْهما مِنْ نحْوٍ، وللتّنــــافُسِ بين طُموحِ كلٍّ مِنْهُما، وإنْ يكُــــنْ خفيّــاً، فــي عملِهما في مجالٍ فنيٍّ واحِدٍ: فتورجنيـــف كــانَ يتحفظُ ويتحرَّجُ ويُجامِلُ، وتولستوي كانَ صريحاً واضِحاً لايُخفي ما في نفْسِهِ، مع حِدّة طبعٍ فيــــهِ لاتعْصمُهُ حيناً مِنَ الوصولِ به إلـــى الحماقـــةِ. وهكذا فقد الضابطُ العائدُ مِنْ سباســـتبول الجـــوَّ الودِّيَّ الأوّل الذي قُوبل بِهِ في الأوْساطِ الأدبيــــةِ والفنيَّةِ في بطرسبورغ، ولكنَّ الصداقــــة التـــي ربطتْهُ **بالشاعرِ الشابِّ فت**، الذي كان ضابطـــاً

من قبلُ مِثل تولســتوي، لــمْ تنفصِــمْ عُراهــا، وأصبحَ الشاعرُ مِنْ أعــزِّ أصدقــاء تولســتوي وأقربِهِم إلى قلبهِ طوال حياتِهِ.

كان تولستوي لايُخفي انْغِماسهُ فــي اللــهْوِ والميْسرِ والخمرةِ والنِّساء، وهو الذي يُنكرُ علـى أصْحابِهِ من الأدباءِ ورجالِ الفنِّ ما يفعلُــهُ هــو نفسُهُ، وقد دخلَ الشاعِرُ فت بيْت تورجنيف قبــل معرفتهِ بتولستوي، فــرأى ســيفاً معلقــاً علــى الجدار، فسأل الخادِمَ عنْهُ فأجابَــهُ: إنَّــهُ ســيفُ الكونت تولســتوي، وهــو نــائمٌ فــي حجْــرةِ الاستِقْبالِ، ودخَلَ فتِ إلـــي تورجنيــف، فكــان الرجلانِ يتكلمــانِ همســاً، مخافــة أنْ يوقِظــا

تولستوي، وأشار تورجنيف إلى تولستوي قـائلاً: "هكذا تراهُ أبداً.. الخمـــرُ والغجريـــات ولعِـبُ الورقِ طوالَ الليلِ، ثم ينامُ هكذا كأنَّهُ جُثّةٌ هـامِدةٌ حتَّى الساعةِ الثانية بعْد الظهْرِ، ولقد حاولْتُ أولَّ الأمْرِ أنْ أصدَّهُ عن ذلك، ولكنَّني الآن نفضـــتُ يدي وتركتُهُ يفعلُ ما يُحِبُّ!"

وغادرَ تولستوي بطرسبورغ عـــائداً إلـــى ضيعتِهِ، وفي طريقِهِ عرَّج على موســكو، وزارَ بعض منْ يعرفُ مِنْ ســـاكنيها، ومنْــهُمْ أســرةُ الدكتورِ (بيرز) وزوْجتُهُ هيَ تلك الفتاةُ التي كانَ يُلاعِبُها صغيراً، والتي كانَ يغارُ عليْها، ودفعــها مرة دفعةً آذتْ ساقها، وقدِ استقبلتْهُ مـــع بناتِــها

الصغيراتِ الثلاثِ في ابْتِهاجٍ وسُرورٍ، ولم يكُنْ تولستوي يدري يومذاك أنَّ الوُسطى التي كانتْ في الثانية عشْرة ستصبحُ بعْدَ سِتٍّ سنواتٍ زوجتَهُ الكونتس تولستوي!

كان تولستوي شديد الرغْبةِ في الزَّواجِ، وقدْ تعلَّقَ حيناً بفتاة يتيمةٍ كانتْ لهُ الولايةُ عليْها، هي فاليريا أرسنيف، ولكنَّهُ ظلَّ مُتردِّداً في الإعْلانِ عن حُبِّهِ لَها، ثُمَّ انصرفَ عنْها وعادَ إلى موسكو، ليقضِي كثيراً من وقتِهِ في الكِتابةِ حتَّى أتمَّ كتابَهُ (عهدُ الشبابِ)، وبعْدَ تنقُّلٍ بيْن موسكووبطرسبورغ وضيعتِهِ، ومطالعاتٍ لِمؤلَّفاتِ جوتيه وهوغو وديكنز وثاكري وموليير

وشكسبير، عزَمَ تولستوي على القيامِ برحلةٍ إلــى أوربة، هي أولْى رحلتيهِ في حياتِهِ: الأولى ســنة 1857 والثانيــةُ 1860 ـ 1861، ولــم يُغــادرْ تولستوي روسية طوالَ حياتِهِ في غــيرِ هــاتينِ الرحلتينِ.

2

في الحادي والعشرينَ مـــنْ شــباط 1875 وصلَ تولستوي إلى **باريس** بالقطار، ليقضي في العاصمةِ الفرنسيَّةِ ستَّة أسابيع، قضاها في التردُّد على مواطنِ اللهْوِ والمسارحِ والمراقِـــصِ ودار الأوبِرا والمتاحِفِ، وزيارةِ الكنـــائسِ القديمـــةِ، والمـــدارسِ العُليـــا، والأنديـــةِ ومرابِـــعِ الفـــنِّ والموسيقى **والتَقى في باريس بعيد وصولِهِ إليها بتورجنيف**، ودبَّ الخلافَ بينَ الصديقينِ حتَّـــى بلَغَ الأمرُ بتولســـتوي أنْ دعـــا صاحبـــهُ إلـــى مبارزتِهِ، لولا أنْ تدخَّلَ بينـــهُما صديـــقٌ لـــهما بالحُسنى، وأصلَح بينهُما، فنسيا خِلافهُما، وذهبـــا

معاً في شهْرِ آذار إلى مدينةِ ديجون ليقضيا فيــها بضعةَ أيّامٍ قبلَ أنْ يَعود إلى باريس، وقد دُهِــش تولستوي لجوِّ الحريةِ الاجتماعيةِ الــذي يعيــش الفرنسيون فيهِ، والذي لم يكنِ الروس يعرفـــون شيئاً عنْهُ في بلادِهِمْ.

وفي شهرِ نيسان **شاهَدَ تولستوي تنفيذ حُكمٍ بالإعْدامِ** على أحدِ الرجالِ، ورأى المقصلةَ تقطعُ عنقَهُ، فحزِنَ لذلكَ أعمقَ الحُزنِ، ولمْ ينمْ ليلتـــهُ من الألَمِ. وقد عكَّرَ هذا الحــادثُ عليــهِ صفــوَ إقامتِهِ في باريس، فغادرَها سريعاً إلى سويسرة.

وفي جنيف التَقــى تولســتوي بــالكونتس الكسندرا تولستوي، وهي إحْدى قريباتِهِ، وكانتْ

وصيفةً لابنةِ الإسكندرِ الثاني، وقد جاءتْ إلـــى سويسرة في صُحبتِها، وقدْ ملأتِ الكسندرا بعقلِها وملاحتِها وذوقِها في ملابسِـــها وزينتِـــها قلـــبَ تولستوي وعقلهُ، ولكنَّها كانَتْ تكـــبرهُ بـــإحْدى عشرة سنةً، وكمْ تمنَّى لو أنَّها كانتْ فـــي مثْـــلِ سنِّه، وقد ظلَّ على إعْجابِهِ بها طوال حياتهِ.

وقد تنقّلَ تولستوي في ربــوعِ سويســرة، مُتملياً **جمال الطبيعةِ فيها**، نحْواً من شـــهرين، وقام برحلةٍ منْها إلى شـــمالي **إيطاليـــة**، ليُقـــابلَ بعض أصحابِهِ، وكان يُوالي وصف مـــا تـــرى عيناهُ من سِحرِ الطبيعةِ وفتنتِها في رسائلهِ إلـــى عمَّتِـــهِ تاتانيـــا، **ورجـــعَ أخـــيراً عـــنْ طريـــق**

(فرانكفورت) و (درسدن) إلى وطنـــــه بعــدَ أنْ خسر في طريقهِ كل ما كان معهُ مِنْ مـــالٍ فـــي اللعبِ، وما استدانهُ منْ بعضِ أصحابِهِ أيضـــــاً، ووصلَ إلى ضيْعتِهِ في آب، بعدَ أنْ قضى فـــي بطرسبورغ عدة أيّام، وسيقْضي تولستوي منـــذُ ذلك الحين ثلاث سنوات في التنقل بين ضيعتِــهِ ومدينتي موسكو وبطرســبورغ قبْــلَ أن يقــومَ برحلتِهِ الثانيةِ إلى أوربة.

أمّا في الضيعةِ فقدْ كان تولستوي ينهمِك في رعايةِ شؤونِ أملاكِهِ وفلاّحيـــه، ويقبِــلُ علـــى الفلاحةِ كأنَّهُ فلاحٌ لم يُغادرْ أرض قريتِـــهِ قـــطُّ، وكان **يُخالِطُ الفلاحينَ**، ويحاولُ أن يقومَ ببعـــضِ

أعْمالِهمْ، وقدْ أحبَّ إحْدى الفلاّحاتِ، ولمْ يستطِعْ أنْ يُغالبَ معها عرامةَ جسدِه، **وكان ثمرةَ تلك العلاقةِ المُحرَّمةِ ولدٌ لهُ، سيُصبِحُ سائساً فيما بعْدُ عِنْدَ أحدِ أبنائهِ**؛ وكان أحياناً يعنُفُ على فلاّحيهِ، ويندمُ على عُنفِهِ أكْبرَ النّدمِ، وقدْ شاركَ يوماً في صيْدِ الدِّببةِ في الغابةِ، فوثب عليْهِ دبٌّ وطرحَهُ أرْضاً وعضَّهُ عضَّةً قويَّةً مزَّقتْ خدَّهُ، تحت عينِهِ اليُسرى والجانِبَ الأيمنَ من جبْهتِهِ، ولولا أنَّ أصحابهُ أفزعُوا الدُّبَّ ففرَّ هارباً لكانَ تولستوي قد قضى نحبَهُ! وسيستغِلُّ قلمهُ الفنّانُ جميع هذهِ التجارب حين يصف أمثالها وصفاً نابِضاً بالحيويةِ والواقعيَةِ في رواياتِهِ.

وأمّا في المدينتينِ الكبيرتيْنِ فكان تولستوي ينصرفُ حيناً إلى اللهْوِ والمجونِ، ويقومُ حيناً بزيارة الأُسرِ التي يعرفُها، وقدْ قضى في بطرسبورغ مع ابنةِ عمٍّ أبيهِ الكسندرا عام 1859 عشْرة أيامٍ منْ أسعد أيام حياتِهِ، كما يقولُ في مُذكّراتِهِ.

وكان تولستوي لا ينقطِعُ عن الكتابةِ: فهو ينكبُّ على كتابةِ قصّتِهِ **(أهلُ القوقاز)** كما ينجزُ بعضَ الأقاصيص القصيرة، ولبّى في موسكو دعوة جماعةِ محبِّي الأدب الروسي فألْقى في مُنتداهم أوّل خطبةٍ في حياتِهِ، وكانَ موضوعها أنَّ العنصرِ الفنيّ في الأدب مقدَّمٌ على جميعِ

العناصرِ الأخْرى، وهو رأيٌ سيُخالِفُهُ هو نفْسُـــهُ كُلَّ المخالفةِ في المرحلَةِ الأخيرةِ من حياتِهِ.

وفوجِىء تولستوي بمرضِ أخيـــهِ نيقــولا وسفرهِ إلى أوربة في طلبِ العِلاجِ، فقرَّرَ اللحاقَ بأخيهِ المريض ليراهُ، ويزور المدارس في بعضِ العواصمِ، ليطَّلِعَ على أنْظمةِ التعليمِ فيها، وهكــذا **غادرَ روسية إلى برلين** في تموز 1860، حيــثُ أمضى شهرين في زيارةِ مدارِســها، وحضــورِ بعضِ المحاضراتِ فـــي جامعتِــها، ومشــاهدةِ الدراساتِ الليليةِ للعمَّالِ فيها، ثُمَّ تنقَّلَ في بعــضِ المُدنِ الألمانيةِ الأُخْرى، وهُوَ يُوالي زيارة أخيــهِ المريضِ في مدينةِ **(سودن)**، حتى أشار الأطبــاء

عليْهِ بنقلِهِ إلى الجنوبِ، فانتقَلَ تولستوي بهِ، وكانتْ أختُهما ماري تُشرفُ على المريضِ، ورحلوا جميعاً إلى (هيرس) على شاطىءِ البحْرِ المُتوسِّطِ، بالقُرْبِ منْ مدينةِ طولون، وعنْدَ مرورِهِمْ بفرانكفورت أتيح لِتولستوي أن يزور ابنة العم الكسندرا تولستوي.

وفي (هيرس) **اشتدَّتْ وطأة المرضِ على أخيهِ، فقضى نحبهُ بين ذراعيْ ليون** في الثامنِ والعشرين من أيلول 1860، وقد ترك مشهد موتِهِ أثراً عميقاً في نفْسِهِ، وقد غمرهُ فيضٌ من الحُزْنِ والتشاؤمِ والتفكيرِ في مصيرِ الأحْياءِ إلى الموتِ والعدمِ.

وقامَ تولستوي بعدَ ذلك **برحلةٍ إلى إيطاليــة،** **حيثُ تنقَّلَ بينَ فلورنسة وروما ونابولي** قبـلَ أنْ يعودَ في أوائلِ عام 8161 إلى **فرنسة، ويـــزور باريس** ويلتقي فيــها بتورجنيــف، ثُــمَّ يســافِرُ الصديقانِ معاً إلى **لندن،** حيثُ يحضُرُ تولســتوي بعضَ المحاضراتِ، وبعضَ جلســـاتِ مجلِــسِ العمومِ، **وقامَ مع تورجنيـــف بزيــارةِ الكــاتِبِ الرُّوسيِّ الحُرِّ (هيرزن)** وكان يعيشُ في المنفـــى بلندن، وفي شهرِ شباط أصْدرَ القيْصــرُ قــراره بتحريرِ الفلاّحين، وعلِمَ تولستوي أنَّـــهُ اختــيرَ قاضِياً (حكماً) في إقليمِهِ بين المالكين والفلاحيـن فاعتزَمَ العودة إلى وطنِهِ، وعــادَ عــنْ طريــق

(بريسل)، وفي هذهِ المدينة كانَ تولستوي يكتُبُ قصتَّهُ (بوليكوشكا) وهي مأساةٌ تدورُ حولَ الرقِّ، وقدْ ندَّدَ فيها باستِغْلالِ ملاّكي الأرْضِ واستعبادِهِمْ لفلاّحيهِمْ وظُلمِهمْ لهُمْ، وتعدُّ أقْوى ما كُتِبَ في الأدبِ الرُّوسيِّ كلهِ في هذا الموْضوعِ، ونالتْ إعْجابَ تورجنيف وتقديره؛ وفي أواخِرِ نيسان وصلَ تولستوي إلى وطنِهِ بعدَ هذهِ الرِّحلةِ التي استغْرقتْ عشرة أشْهُرٍ، وهي ثاني وآخِرُ رِحْلاتِهِ خارِجَ روسية كما قدَّمْنا.

3

كان تولستوي قد أنشأ في قريتِـــهِ **مدرســـةً خاصَّةً لتعليمِ أوْلادِ الفلاحين**، وكـــانتْ زياراتـــهُ للمدارِسِ في ألمانيا وسيلةً للاطِّلاعِ على أنظمـــةِ التعليمِ والاقتِباسِ مِنْها في تدبيرِ مدْرستِهِ وتطبيقِ نظريَّاتِهِ في التعليمِ فيها، وكانَ يريدُ أن يُشـــعِرَ تلاميذهُ بالحريةِ التامَّةِ ليُقبِلوا على التعلُّـــمِ بلـــذَّةٍ وانشِراحٍ، وكان يوجِّهُ كلَّ واحدٍ منْـــهُمْ حسْـــبَ مُيولِهِ، ولا يُلزِمُهُمْ بِما لا يُريـــدون، ولايطلـــبْ مِنْهُمْ إلاّ النظافة والانتِباه والصدقَ فـــي القـــوْلِ، ولهذا تعلَّقَ التلاميذُ بمعلميهمْ، وكـــانوا ثلاثـــةً،

وكان تولستوي أحدَهُمْ، بالإضافةِ إلى قسِّيسٍ كان يتردَّدُ على المدرسةِ مرَّتيْنِ في الأسبوعِ.

كان تولستوي يحاولُ أنْ يتحرَّى المواهِب الفرديَّةِ في تلاميذهِ، فكانَ يبدأ معهُمْ قصَّةً ثُمَّ يسألُهُمْ أنْ يُشاركوا في إتْمامِها، ليستشِفَّ مُيولَهُمْ ومواهِبِهمْ، وفي دروس القراءةِ كان يتركُ لهُمْ حرِّيَّة اختِيارِ ما يقرأونَ، **وأصْدرَ تولستوي مجلةً تحملُ اسمَ ضيعتِهِ (ياسنايا بوليانا) ليُبثَّ فيها آراءهُ في التربيةِ والتَّعْليمِ**، ويعْرِضَ فيها آراء المُربِّين الغربيِّين، ولكنَّهُ لم يستطعْ إصدار أكثر من 12 عدداً، وتكبَّدَ في مشروعِهِ الصحفيِّ خسارةً قدْرُها ثلاثةُ آلافٍ من الروبلاتِ.

كانَ غرضُ تولستوي إصلاحياً: فهُوَ يريــدُ أنْ يُحقِّقَ نهْجاً في التعليمِ، يتبيَّنُ نجاحُهُ للنَّاسِ في روسية، فيــأخذونَ بــهِ، لأنَّ إصْــلاحِ التعليــمِ ومناهجِهِ في رأي تولستوي هُوَ السبيلُ الأقْصــرُ لتحقيقِ تقدُّمِ الوطنِ، وقد سرَّهُ أن تنْتشــر فِكــرةُ مدارسِهِ، وأنْ تعْمد وزارة المعارِفِ إلى إعانتِــهِ، وإن لمْ تكنْ تسلمُ بآرائِهِ كلِّها.

كانَ تولستوي يوالي تجاربه في حقلِ التربيَّةِ والتَّعْليمِ في وقْتٍ كانَتْ فيهِ مُشكلاتُ التحْكيمِ بينَ الفلاّحين والملاّكين مثارَ إزْعاجٍ وإتعابٍ لهُ، فقــد نقمَ الأُمراءُ المالِكون منهُ عطفهُ على الفلاحيــنَ، إذا حكمُّوه بينهُمْ، وازداد طمــعُ الفلاحيــن فـــي عطفِهِ، فأرادوا منهُ أنْ يُعطيهمْ فوق حقِّهمْ، فلمَّـــا

لمْ يُجِبهُمْ غضِبوا منْهُ، وراحوا ينالونـــهُ بسُــوء القوْلِ، فلمْ يجد بُدّاً آخر مِنْ أن يستقيلَ من مُهمّــةِ التّحْكيمِ بينَ فريقيْنِ لايرْضى كلاهُما بأحْكامِـــهِ، فأُعفي منْها، وقدْ بلغَ بهِ السأمُ حدّاً دفعَــــهُ إلـــى القِيامِ برِحلةٍ إلى سُهولِ سمار شرقيَّ الفولجا في شهْرِ أيار 1862 وعلِمَ وهُوَ في إقليمِ ســـمارا أنّ فريقاً منَ الشّرْطةِ قدِ اقتحموا بيتَـــهُ ومدْرســـتَهُ على أعينِ النّاسِ، ولم يتركوا جانِباً فيهما مـــن غيرِ تفتيشٍ دقيقٍ، وقدْ عبثتِ الشّرْطةِ بمذكراتِــهِ الخاصّة وبِما لديهِ من رسائل، وكان ارتياعُ أختِهِ وعمَّتِهِ للحادثِ كبيراً، وقد أحسَّ تولستوي بجرحٍ عميقٍ في كبريائهِ، فــأعْلنَ أنّــهُ إذا لــم يتلــقَ ترضيةً علنيةً عمّا لحِقَ بهِ مِنْ إهانــــةٍ عامّــةٍ

فسيبيعُ ضياعَهُ ويغادرُ وطنــــهُ، وكتــب إلـــى القيصرِ كِتاباً بذلك، حملهُ أحدُ حُرّاسِهِ إليْهِ، وقــد استجابَ القيْصرُ لشكْوى تولستوي وحقّقَ لهُ مـــا طلب من ترضيةٍ، وكانَ أوّلَ انتصـــارٍ للكــاتبِ العظيمِ على الحكومةِ في وطنِهِ، حققـــهُ بفضــلِ شجاعتِهِ الأدبيَّةِ، **إذ أمرَ الإسكندرُ الثاني حـــاكم ولايةِ تُولا بأنْ يذهبَ إلى تولستوي ويعبِّرُ لـــهُ عنْ أسَفِ القيصرِ لما وقعَ لهُ!**

وطابتْ نفسُ تولستوي باعتِذارِ الحاكمين لهُ، وسكتَ عنْهُ الغضبُ، وأزمَعَ أن ينصرفَ بجِــدٍّ إلى البحثِ عن الزوجـــةِ التــي تُعيْنُــهُ علــى الاستِقْرارِ وتكوينِ أسرتِهِ الصغيرةِ، وقـــد بلــغَ الرابعة والثلاثين من عُمرهِ!

ولمْ تطُلْ حيرةُ تولستوي هذهِ المــرَّةَ، فقــدْ **أقدمَ على خُطبةِ سونيا (أوصوفيا) وُسطى بنــاتِ الدكتور (بيرز)** الذي يعيشُ مــع أســرتِهِ فــي موسكو ــ كما قدَّمنا ــ وكـــانَ رجُــلاً موفــورَ الرِّزْقِ، لهُ وظيفةٌ في البلاطِ، وقد مُنِحَ لقَبَ النُبْلِ جزاء على خدماتِهِ في القصْرِ الإمـــبراطوري، وقدْ علَّمَ بناتهِ الثــلاث علــى أيــدي المعلِّميــن والمعلِّماتِ من الألمان والفرنســيين، ليُصبْحــنَ معلِّمات يكسَبْنَ قوتُهُنَّ بعملِهنَّ، وكـــانتْ سُــونيا وُسطى الثلاثِ فتاة جميلةً ذات عينينِ رمـــاديَّتيْنِ واسِعتيْنِ، ووجْنتَيْنِ مُتورِّدتيْنِ، وكـــانتْ مُولعــةً بالأدبِ والتصويرِ والموسيقى، وعِنْدمـــا تمَّــتْ

خِطبةُ تولستوي لَها، وقبِلتْ بهِ زوْجاً لَها، **دفــــعَ إليْها مذكّراتِهِ لتقْرأها وتطَّلِعَ منْها على حقيقتِـهِ وتعرِفَ أنَّهُ ليسَ نقِيَّ السِّيرةِ مِثْلها**، وســـــهرتْ سونيا إلى الصباحِ مع المُذكّراتِ، وبكت كثـــيراً للصُّورة التي ترسمُها صفحاتُها للزَّوْجِ المُقبـــلِ، وعِنْدما أقبلَ تولستوي عليْـــها ســألها الصفْــح والمغفِرة، فأجابتْهُ إليهِما، وبكتْ وبكى معها.

وتمَّ الزفافُ، وحملَ تولستوي عروسهُ فـــي عربةٍ فخمةٍ إلى (ياسنايا بوليانا) لِقضـــاءِ شــهرِ العسلِ فيها، وبدأ الزوجُ يتحدَّثُ في مذكّراتِهِ عنْ **سعادتِهِ الزوجيةِ وحُبِّهِ لعروسِهِ الفاتِنةِ**، وكتبــتْ الزَّوجةُ إلى أختِها تصِفُ لَها ســـعادَتَها وحُــبَّ

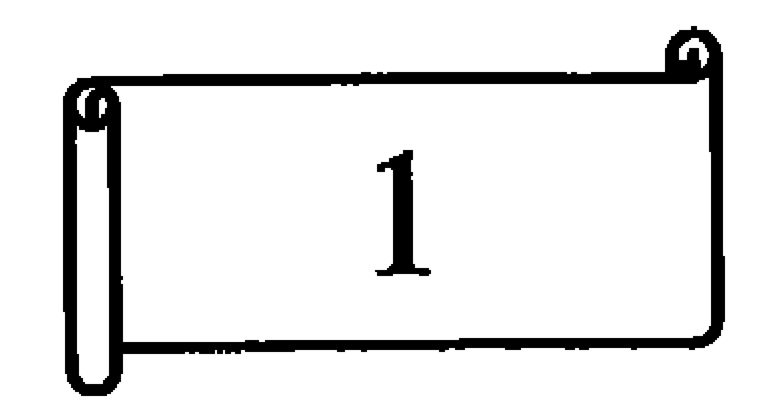
زوجها لَها "حُباً بلغَ من القوَّةِ حدَّاً تخجلُ وتفــزعُ مِنهُ ، لأنَّها لا تتبيّنُ لهُ سبباً!"

كانتْ السَّعادةُ تغمـــرُ بأجنِحَتِـــها الزَّوجيـــنِ الحبيبيْنِ، وفي حزيران عامَ 1863 **رُزقا بغُـــلامٍ سمّياهُ (سيرجي)**، فازْدادتْ بهجةُ الأســـرةِ بـــهِ واحتفلَ تولستوي بعيدِ ميــلادِ زوجتِـــهِ احتفـــالاً صاخِباً، فازدادتْ تعلُّقاً بهِ، وانصرفَ الزَّوْجُ إلى العِنايةِ بضيْعَتِهِ وأمْلاكِـــــهِ، **وكـــانتْ الكونتـــسُ تولستوي تساعدُهُ** في تدبيرِ شُـــؤونِهِ الماليَّـــةِ، وتنْهضُ بدوْرِ ربَّةِ البيْتِ على نحْـــوٍ يســـتدعي الإعْجابَ، وكان على تولستوي وقدِ اطمأنَّ إلـــى حياتِهِ أنْ ينصرِفَ إلى فنِّهِ ليَبْلُغَ بهِ القمَّةَ.

الباب الرابع

تولستوي في أوجِ فنِّهِ وروائِعِهِ الأدبيةِ

1863 ـــ 1877م



بدأ تولستوي بعدَ زواجِهِ مرحلةً جديدةً مـــنْ حياتِهِ، فزوجتُهُ امرأة تُحسِنُ التَّدْبيرَ، وقدْ دفعتْـــهُ إلى أنْ يتخلَّى عن المشاغِلِ التي لا تـــرى لـــها جدْوى، مثل المدرســـةِ ومخالطـــةِ الفلاّحيـــنَ، لينصرِفَ إلى تدْبـــيرِ أمـــورِ ضيْعتِـــهِ وتنْظيـــمِ إيراداتِها، فأصبْحَ الرجلُ يُعنى بتربيـــةِ الخيـــلِ والضأنِ والأبقارِ والخنـــازير وخلايـــا النحْـــلِ،

ويزرعُ الحدائقَ ويُنشئُ الغاباتِ، ولم ينْسَ مع ذلكَ مُوالاةَ عملِهِ الفنيِّ في الكتابةِ، وقدْ نشرَ قصتَهُ **(أهل القوقاز)** في مطلعِ عامِ 1863 بعدَ أنْ ظلَّ يُعيدُ النظرَ في كتابتِها مدَّةَ عشْرِ سنواتٍ، فجاءتْ آيةً من آياتِ الأدبِ الرُّوسيِّ، وعدَّها النُّقادُ خيْرَ ما كتبَ تولستوي قبْلَ أن يبلغَ أوْجَ فنِّهِ العظيمِ في روايتيْهِ الرائعتَيْنِ: (الحربُ والسلامُ) و (أنا كارنينا).

أمّا (الحربُ والسّلامُ) فقد أمضى ستَّ سنواتٍ في كتابتِها، وكانتْ زوجتُهُ تعاونُهُ في نقلِ ما يكتُبُ ومراجعتِهِ، وقد بذلَ المؤلفُ في تأليفِ (الحرب والسلام) جُهوداً جبّارة، إذ أربتْ **قصّتُهُ على ألف صفحةٍ**، وكانَ يجدُ في تشجيعِ

زوجتِهِ وعونِها سعادةَ نفْسهِ وراحتَها. وكتبتْ في ربيعِ عام 1867: "لقدْ ظلَّ ليونُ يكتبُ طوالَ الشِّتاءِ، وإنَّهُ لشديدُ الاهتياجِ والانفِعالِ، تمتلىء عيناهُ أحياناً بالدُّموعِ، وإنِّي لأعتقِدُ أنَّ قصَّتَهُ هذِهِ سوفَ تكونُ أعجوبةً".

وأصبَحَ تولستوي يُنفِقُ أكثرَ وقتِهِ في الكتابةِ وقد أقْبَلَ على إنْجازِ روايتِهِ الضخْمةِ بحماسةٍ، وكانَ يزورُ مواقِعَ المعارِكِ التي يصفُها في قصَّتِهِ: زارَ في خريفِ 1865 مكانَ موقِعةِ بورودينو، ودرس بعُمْقٍ كيفَ دارتْ رحى المعركةِ، وسعى إلى مقابلةِ من بقيَ على قيدِ الحياةِ مِنَ الذينَ شاركَوا في تلك المعْركةِ التي وقعتْ عام 1812، كما كانَ يزورُ المتاحِفَ

والمكتباتِ لمُراجعةِ الكُتب والمخْطوطاتِ التـــي لها صِلةٌ بعَهْدِ الإسكندرِ الأوّلِ، وما كان للنَّـــاسِ في عصرِهِ من نزعاتٍ سياســـيَّةٍ أو فكريَّـــةٍ أو اجتماعيَّةٍ، ليستمِدَّ إطاراً واقعياً لأحْداثِ روايتِـــهِ الخالدة.

إنَّ موضوعَ روايةِ الحربِ والسلامِ هو ذلكَ الهجُومُ الهائلُ الذي قامَ بهِ نابوليونُ على روســية إذ اقتحَمَ أراضيها، مواصِلاً زحْفَهُ الكبيرَ حتَّـــى وصلَ إلى عاصِمتها موسكو، ثُمَّ ارتدَّ مُنْســـحِباً، خائباً مقهوراً، مهْزوماً لأوّلِ مـــرَّةٍ فـــي ســـجلِّ حُروبِهِ الكُبرى، وكانت هزيمتُهُ هذه بدْءَ ســقُوطِهِ وأفولِ نجمِهِ، ولمْ يكُنْ سبَبُ هزيمتِهِ اصطِدامـــهُ

بجيشٍ أعظمَ من جيْشِهِ، وإنَّما لأنَّهُ واجَهَ شــعْباً اجتمعتْ كلِمتُهُ على ألا يُقْهَرَ، وأنْ يرُدَّ المُعتــدي المُغيرَ على أرضِهِ ويُحرِّرَها من الغُزاةِ!

لمْ يُعالجْ تولستوي هــذا الموضــوعَ علــى النسقِ الروائيِّ المعْروفِ الــذي يتطلَّــبُ بسْــطَ الموْضوعِ ثُمَّ الوُصولَ إلى النتيجةِ، بل سلَكَ فيــهِ أسلوباً قريباً مِنَ الملاحِمِ الشعريَّةِ التي أبْدعَــها خيالُ الأقدمين، واستَطاعَ بذلك أن يُصــوِّرَ فــي روايتِهِ حياة أمَّةٍ في فترةٍ عصيبةٍ مــنْ فــتراتِ حياتِها، وقدْ وصَفَ الكــاتِبُ العبقــريُّ صُمــودَ الشَّعْب الرُّوسيِّ في وجْهِ الغَــزْوِ بإتْقــانٍ بلــغَ أقْصى ما وصلَ إليْهِ طُموحُ فنَّانٍ قبْلَ تولســتوي

أو بعده. وقدْ أعارَ شخصيّات روايتِـــهِ ملامِـــحَ حيّةً لأشخاصٍ عرفهُمْ الكاتبُ في الحيـــاةِ، مـــنْ أفرادِ أسرتِهِ وأقاربِهِ وأصدِقائهِ ومعارفـــهِ، وقـــدِ اتَّفق النُقّادُ على أنَّ شخصيَّةَ (بيير) في الحـــربِ والسلامِ فيها ملامِحُ كثيرة مِنْ صورَةِ تولســـتوي نفْسِهِ، وأنَّ شخصيَّةِ (ناتاشا) الصغيرة المرحـــةِ فيها مزيجٌ منْ ملامِحِ زوجتِهِ (ســـونيا) وأختِـــها (تانيا) وكانتِ الأختُ الصغيرةُ عزيـــزة علـــى تولستويَ حتّى إنّها لتُثيرُ أحْياناً غـــيْرةَ الأخـــتِ منْها على زوْجِها.

أمَّا الشخصيّاتِ التاريخيَّـــةُ الحقيقيَّـــةُ فـــي الرِّواية، مثلُ الإســـكندرِ الأوَّلِ وكوتـــوزورفَ

واسبرانسكي ونابوليون بونابرت، فقدْ حـرَصَ تولستوي أن يُعيرها ملامِحِها الواقعيَّـةِ، إلاَّ أنَّ صورة نابوليون كانتْ تشملُ نفائِصَـهُ وتتغـافلُ عنْ مزاياهُ، ويبدو أنَّ تولستوي تعمَّدَ ذلك، تقويـة لملحمَتِهِ الوطنيَّةِ ودَعْماً للقوميَّةِ الروسيةِ.

والبطلُ الحقيقـيٌّ فـي ملحمـةِ (الحـربِ والسلامِ) هُوَ الشعْبُ الروسِيُّ كلُّهُ، مجتَمِعـاً وراء هدفٍ واحِدٍ في كِفاحِهِ المجيد في وْجـهِ العـدوِّ الفاتِحِ، وتدُورُ أحداثُ الرّوايةِ لتصوِّرَ حـروبَ نابوليون طوالَ عشرِ سنواتٍ (مـن عـامِ 1805 إلى عامِ 1815) فوقَ مسرَحٍ هائلٍ يشْملُ الأرْضَ الرُّوسيّةَ كلُها ورقعةً كبيرةً من أوربـة، ولـولا

قدرةُ تولستوي الفنيَّةُ الفذّةُ وعبقريّتُهُ المُبْدِعةُ لما استطاعَ أنْ يجْمعَ في كُلٍّ واحدٍ منسجمٍ ومُترابطٍ جُمْلةَ تلك الأحْداثِ في خِلالِ تلك السنواتِ العشرِ، فوْق ذلكَ المسرحِ الهائلِ المُترامي الأطْراف، **والنُّقادُ يعدُّونَ رائعة تولستوي هذِهِ مُعْجزة فنِّيةً، ويُسمُّونها (الإلياذة الحديثة) ويعدُّونها أعظمَ روايةٍ عالميَّةٍ** أبدعتْها عبقريّةُ فنّانٍ عظيمٍ، وهي تُمثِّلُ أسمى ما وصلَ إليْهِ الفنُّ القصصيُّ في روسية في القرْنِ التاسِعَ عشرَ، وهو عصرُ نبوغِ فنِّ الرِّوايةِ، بلْ هي إحْدى آياتِ هذا الفنِّ في العالمِ كلِّهِ، **ويعُدُّها بعضُهُمْ أعظم قصّةٍ ظهرتْ في أدبِ الدُّنيا قاطبةً.**

لقد بلَغَ تولستوي في رائِعتِه الخـــالِدة قمَّــة مجدِهِ الأدبيِّ، وأصبَحَ مؤلِّفُها مِنْ أجْلِــها أعظَــمَ كاتِبٍ في عصْرِهِ، وحقَّقَ لنفْسِهِ بِها الخلودَ علــى مرِّ الأجْيالِ.

2

بلغَ تولستوي أوْج فنِّهِ في روايةِ (الحــــربِ والسلام) وكانَ عليْهِ أن يُوالي الجهْدَ للاحتفــــاظِ بالقمّةِ التي وصلَ إليـــها، فـــأخذ يبحـــثُ عـــن موضوعٍ جديدٍ لروايةٍ أخرى، وقد خُيِّلَ إليْهِ حيناً أنَّ شخصيةَ القيصر العظيم بطرسَ الأكبرَ تُقَـــدِّمُ إليْهِ مادَّة غنيَّة لعملٍ فنِّيٍّ كبـــيرٍ، فظَـــلَّ طـــوالَ سنتين يُطالِعُ كلَّ ما كُتِبَ عنْهُ، ثُمَّ انْصرَفَ عـــنِ الموْضوعِ كلِّهِ، لأنَّهُ وجَدَ في إصْلاحاتِ القيصـــرِ التي قامتْ على إدْخالِ النُّظمِ والتقـــاليدِ الغربيَّـــةِ إلى روسية إفْساداً لفضائلِ الرّوسِ القديمةِ، وليْسَ في إمكانِهِ أنْ يَعُدَّها أعمالاً جليلةَ!

وانْهمكَ تولستوي حيناً في قِراءةِ الفلسفةِ، وكانَ تشاؤمُ شوبنهاور ينالُ إعْجابَهُ ويدفعُهُ إلى إطالةِ التأمُّلِ والاستسلامِ للهُمومِ، وساءتْ صِحتُهُ واشتدَّ إحْساسُهُ بالتَّعبِ وبحاجتِهِ إلى الراحةِ، **فسافَرَ مع بعضِ أفْرادِ أسرتِهِ إلى جنوبِ القوقازِ**، صيفَ عامِ 1871 وقضى في سمارا مدَّة شهْرينِ، وأمْضى أوقاتاً هانئةً **في مُحيطِ قبائلِ الباشكيرِ**، فكانَ يلبسُ ملابسهُمْ، **ويتكلّمُ اللغةَ التتريَّةَ التي تعلّمها في الجامِعةِ**، في تفاهُمِهِ معَهُمْ، ويعيشُ في خيامِهِمْ عيشةً بدويَّةً، ويأكُلُ طعامَهُمْ وقوامُهُ لحمُ الضأنِ كُلَّ يومٍ، كما كانَ يشربُ لبن الأفراسِ المُخمَّرِ، وكانَ يجدُ في كُلِّ ذلك بهْجةَ لروحِهِ ومُتعةً لنفْسِهِ، وكانَ يُوالي

الكِتابةَ إلى زوجتِهِ ليحدِّثَها عنْ حياةِ تلكَ القبــائلِ وأحْوالها وطباعِها وعاداتِها، وبلغَ مِنْ إعْجابِـــهِ بتلكَ الحياةِ الفطريَّةِ الساذجةِ للنّـــاسِ هُنـــاكَ أنِ اشترى إحْدى الضِّياعِ في تلكَ الجِّـهاتِ، ليـأتي إليْها في الصيْفِ مع أُسرتِهِ.

عادَ تولستوي من القوقـــاز إلـــى (ياســنايا بوليانا) ليعاودَهُ السأم، السأمُ من حياتِهِ ومن كــلِّ ما يُحيطُ بِهِ، وأحسَّتْ زوجتُهُ أنَّ شيْئاً ما طـــرأ على حياتِهِما الزوجيّةِ فكتبتْ في مذكّراتِها: "لقــد فقدتُ إيماني الشديد بالحياةِ والسعادةِ، إنَّ ليون لمْ يعُدْ ذلكَ الذي عهدتُهُ مِنْ قبلُ، وهو يقولُ: إنّـــها الشيْخوخةُ، وأنا أقولُ: إنَّهُ المرضُ! ولكنَّ هـــذا الشيء كيفَما كانَ أمرُهُ قدْ وقَعَ بيْننا!" ولم تكُـــنْ

الكونتسُ مُخطِئةً في هواجِسِها، فقدْ كان تولستوي ــ كما عرفنا مِنْ مذكراتِهِ أيْضاً ــ **شديد التَّفكيرِ في تِلْك الأيّام بإخفاقِهِ في زواجِهِ، وشكواهُ مــن وحدتِهِ العقليَّةِ والروحيَّةِ.**

وانصرفَ تولســتوي إلـــى **وضــعِ كتــاب لمُطالعةِ الأطْفالِ،** جعلَ عنوانهُ (أ ب ث) ويتألَّفُ من عدَدٍ منَ القِصصِ، بنى بعضها على مشــاهدَ من حياتِهِ، واستمدّ بعْضَها الآخر مِــنْ مصـــادرَ هنديَّةٍ وعربيَّةٍ وغيْرها، وحاولَ أن يُطبِّقَ فيـــها آراءهُ في تربيةِ الطِّفْلِ، وكانَ يحلــمُ أن يُصبِــحَ كتابُهُ أداة لتنشئةِ الأطْفالِ في روسية عليْهِ، جيــلاً بعد جيل. وعندَّما صدرَ الكتابُ في أواخِرِ عـــامِ 1872 كثُرَ نقدُهُ في الصُّحفِ، ولمْ يلــقَ ذُيوعـــاً

وانتِشاراً في ذلكَ الحينِ، ولكنَّهُ سـيعُمٌّ انتشـارهُ فيما بعدُ، **ويُصبحُ خيْرَ كتابٍ لتعليمِ الأطْفالِ فـي روسية!**

لم يلبثْ تولستوي أن اهتدى إلى موضـوعِ روايتِهِ الجديدةِ (أنّا كارنينا) فانكبَّ على كِتابتِـها، في هذا العامِ، وقدْ بلغَ فيهِ الرّابعةَ والأربعينَ مِنْ عمرِه، وابتهجتْ زوجتُهُ بعودةِ الكاتِبِ العبقـريِّ إلى حقْلِ إبداعِهِ العظيمِ.

تـركَ تولسـتوي فـي رائعتِـهِ الجديـدةِ الموضوعاتِ التاريخيَّة، وبنـى الروايـةَ علـى موضوعٍ اجتماعيٍّ **يُعالِجُ مشكلةً خطيرةً، هـي مشكلةُ الزَّواجِ غير الموفَّق**، وكان إقليمُ (تـولا)

شهِدَ قبل سنتيْنِ **حادثاً مأساويّاً** أثار أهْلَ الإقليـمِ، وكانَ موْضوعاً لتعْليقاتِهِمْ وأقْوالِهِم، وخلاصتُـــهُ أن رجُلاً كهْلاً من أصْحابِ الضِّياعِ أتى بِفتاةٍ مِنْ قريباتِهِ لترْعى أمور بيْتِهِ بعْـــدَ وفـــاةِ زوْجتِـــهِ، وكانتِ الفتاةُ صغيرةُ السّـــنِّ جميلـــةُ الطّلعـــةِ ، فأحبّها الكهْلُ فاستسْلمتْ لهُ وأحبتْهُ، وهي تظـــنُّ أنَّهُ سيظلُّ وفيّاً لها، ولكنَّهُ لمْ يلبثْ أنِ اتّخذَ مُربيَّةً فرنسيةً لأولاده، وكانتْ فتاةٌ ذات جمالٍ وســحْرٍ، فانْصرَفَ الكهْلُ إليْها وأهْمل قريبتَهُ التي أكلـــتِ الغيرةُ قلبَها، فلمَّا تصدّتْ لهُ طردَها مـــن بيتِـــهِ، فهامتْ على وجْهِها فـــي المـــزارِعِ والحُقـــولِ، واستولى عليها اليأسُ فألقتْ بنفسِها أمامَ القِطـــارِ، ووضعتْ بانتِحارِهـــا نِهايـــةً فاجعـــةً لمأســـاتِها

الحزينة، وانتشرَ النّبأُ في الإقليمِ، وجاء تولستوي إلى المحطَّةِ، حيثُ كان يجــري التَّحقيــقُ فــي مصرَعِها، وشهِدَ جثّةَ الفتاةِ المُنتحِرةِ، فأثَّرَ فــي نفسِهِ منظرُها، وظلَّ أثرُ الحادثِ في نفسِهِ حيّــاً طوالَ سنتينِ، ثُمَّ **استوحى مِنْهُ موضوعَ روايتِــهِ الجديدةِ.**

غير أنَّ فنَّ تولستوي العظيمَ **جمَعَ في قـصَّةِ (أنا كارنينا) بين ثلاثِ أسرٍ: الأولـــى** ــ وهــي أهمُّها في الرِّوايةِ ــ تمثِّلُ الزَّواجَ غير المُوفَّــقِ، الذي ينْتَهي بمأساةٍ فاجعةٍ، **والثانيةُ** تُمثِّلُ الــزَّواج العاديَّ، حيثُ الزوجةُ امـــرأةٌ وفيَّـــةٌ مخلِصـــةٌ، والزوجُ بعْدَ سنواتٍ من حياتِهِ معَها لايتورَّعُ عن خيانتِها في السّرِّ مع نِســاء أُخريــات، ويــتركُ

زوجتَهُ الذابلَةَ لتربيةِ أولادِها وتدبيرِ شُؤونِ البيْتِ، **والثالثةُ** تُمثِّلُ الزَّواجَ السَّعيدَ المُتكافىء الموفَّقَ، فالحُبُّ البريءُ الطَّاهِرُ يجْمعُ بين فتاةٍ جميلةٍ نقيَّةِ الصَّفحةِ وبيْنَ شابٍّ من نُبلاء الرِّيفِ لايعْرِفُ مساوىء حياةِ المُدنِ ولا يرْضاها، وينْتهي الحُبُّ المُتبادلُ بين الطرفيْنِ إلى تكوينِ أسرةٍ سعيدةٍ يجمعُ بينهُما رباطٌ مقدَّسٌ لا ينفصِمُ!

إنَّ الجمْعَ بيْنَ هذهِ الأُسرِ الثَّلاثِ في خيوطٍ مُتشابكَةٍ وسيلةٌ فنيَّةٌ لإبرازِ التَّناقُضاتِ وإيضاحِها، وإغْناءِ الخطِّ الأساسيِّ للرِّوايةِ، وهُو حِكايةٌ (أنا كارنينا) والأسرة الأولى التي تُمثِّلُ مأساتَها التعسةِ: فأنا كارنينا الفتاةُ المترفةُ الناعِمةُ

التي تعيشُ في أرْقى الأوْســـاطِ التـــي عرفَتْـــها روسية القيصريَّةُ، تتزوَّجُ مِنْ رجُلٍ مُتقــدِّمٍ فـــي السِّنِّ، واسعِ الجاهِ والثَّراءِ، بغيةَ أنْ تؤمِّنَ لنفْسِها حياة ناعِمةً مُترفةً، بعْدَ زواجِها، غيْرَ أنَّ الـزَّوجَ لم يكُنْ ينظُرُ إلى زوجهِ إلاّ على أنَّها متاعٌ يُكملُ بهِ مظاهِرَ الجاهِ والثَّروةِ العريضةِ لديْهِ، وتُـدْرِكُ الفتاةُ بعدَ زواجِها حقيقةَ وضْعِها، فتثــورُ فـــي أعْماقِها، وتُقدِمُ على التَّعلُّقِ بشابٍّ من النُّبَـــلاءِ، وتندفِعُ في علاقَتِها الآثِمةِ بهِ، تعْويضاً عمَّا تُعانيهِ في حياتِها الزوجيَةِ الفاشِلةِ، وهِيَ تحسبُ ذلـــك انتِقاماً مِنْ موقِفِ زوْجِها، وتسوءُ سمعتُها حتَّـــى تُصبحَ مُضغةً في الأفْـــواهِ، وتغْـدو، علاقتُـــها

بعشيقِها خطراً يُهدِّدُ مُستقبلهُ، فيهْجُرُها، فلا تجـدُ العاشِقَةُ المهْجورةُ بُدّاً من الانتِحارِ، فتُلْقي بنفسِها أمامَ عجلاتِ القِطارِ!

هذهِ هي رائعةُ **تولستوي الثانيةُ** التي لقيـتْ منذُ صُدورِها إقْبالاً من القرّاءِ عليْـها، وبذلِـكَ **توطَّدتْ مكانةُ مؤلِّفِها العبقريِّ العظيمِ في القِمَّةِ،** وكان فراغهُ من كتابتِها في نيسـان 1877 وقـدْ غدا في التاسعةِ والأربعينَ من عُمرِهِ.

كانَ تولستوي خلالَ السنواتِ الخمْسِ التـي كانَ يكتُبُ خِلالَها (أنا كارنينا) **يتردَّدُ فـي كُـلِّ صيْفٍ على القرْيةِ التي اشتراها في سمارا،** وقدْ عقدَ هُناكَ عدَداً **مـن الصداقـاتِ مـع بعـضِ**

المُسْلمينَ، ومنْهُمْ **محمّد شاه** الذي كـــان شـــديدَ الإعْجابِ بأمانتِهِ ودماثةِ طبْعهِ وحِرْصِيـــهِ علـــى كرامتِهِ، وقدْ أوْكَلَ إليْهِ حِراثةَ أرْضِهِ والإشْـرافَ على ضيْعتِهِ، وفـي صيْفِ 1873 **حصلتْ مجاعـةٌ في تلكَ البلادِ**، لِسُوءِ المَحْصولِ خِـــلالَ عـــامَيْنِ مُتواليِيْنِ، فـــأودتْ بحيـــاةِ الكثـــيرين، فأرسَـــلَ تولستويُ صيحةَ استِغاثةٍ نشرها فـــي صُحُـفِ موسكو ، فانهالَتِ التّبرّعاتُ على الإقليمِ الجـائِعِ، وكتبَ تولستوي إلى ابنةِ العمِّ ألكسندرا فحملـــتْ أخبـــارَ المجاعـــةِ إلـــى أوْســـاطِ القصْـــرِ الإمبراطوريِّ، وتبرَّعتِ القيصرةُ نفسُها بمبْلَـــغٍ كبيرٍ، وبلغَ المالُ المتبرِّعُ بهِ من الشعْبِ مليونـــي

روبل، وأغيث النَّاسُ في تِلكَ الأصْقاعِ النائيـــةِ، وكانَ وجُودُ تولستوي هنـــاكَ رحمـــةً مـــن الله بعبادهِ، بعْدَ نِقْمةِ المجاعةِ المُدمرةِ.

وأصيب تولستوي خِلالَ هذِهِ السَّنواتِ أيْضاً بموتِ أكثرَ منْ واحِدٍ مـــن أولادهِ، كمـــا مـــاتتِ العمَّةُ تاتيانا، فكان حزنُهُ لوفاتِها شـــديداً علـــى نفْسِهِ، وأحسَّ أمـــامَ فجـــائعِ المـــوتِ المتواليـــةِ بالخوْفِ والحيرةِ، وأصبحَ يُطيـــلُ التـــأمُّلَ فـــي مصيرِ الإنْسانِ وفنائِهِ، ويُحاوِلُ أن يُغرِقَ أحْزانَهُ بانْغمارِهِ في العملِ الفلاحيِّ، كأنَّـــهُ واحِـــدٌ مِـــنَ الفلاّحين، وقدْ كانَ في صيْفِ 1875 في ســـمارا يعملُ بنفسِهِ مع الزُرَّاعِ فـــي أرضِـــهِ، ويُخـــالِطُ

الفلاّحين منَ النَّصارى الأورثوذكس، وترتـــاحُ نفسُهُ لِما بيْنَهُمْ وبيْنَ جيرانِهِ المسلمين مِنْ مــودَّةٍ وتسامُحٍ.

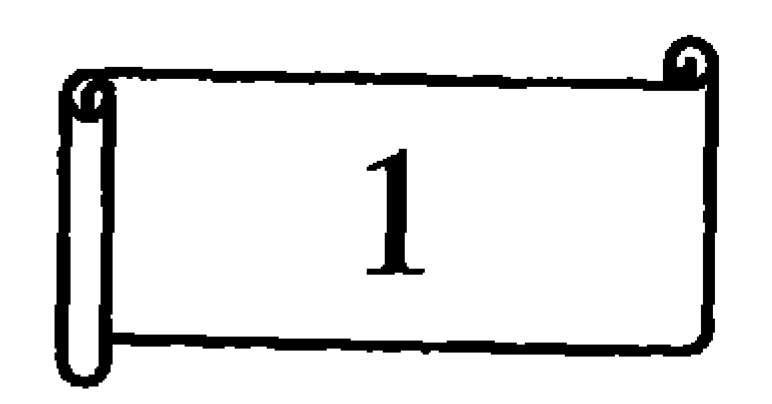
غيْرَ أنَّ استِغْراقِهِ في العملِ لمْ يُنْسِهِ شــقاءهُ الباطنيَّ الكبيرَ، فالكاتِبُ العبقريُّ يُواجِــهُ **أزمــةً نفسيَّةً طاغيةً** لايدري كيفَ يخرجُ مِنْها، وهُـــو دائِمُ التساؤلِ والبحْثِ عنْ تفسيرٍ لحياتِهِ التـــي لا يجدُ لها معنىً!

سنُرافِقُ تولستوي في طورٍ جديدٍ منْ حياتِهِ، ينتقِلُ فيهِ مِنْ رِحابِ الفَنِّ بعْدَ وصولِهِ إلى الأوْجِ فيهِ، إلى رِحابِ الدِّينِ والفلسفةِ، بحْثاً عن حـــلٍّ لأزمتِهِ النَّفْسيَّةِ الكبيرةِ.

الباب الخامسُ

تولستوي في رحاب الدينِ والفلسفةِ

1877 ــ 1910 م



تِسعُ سنواتٍ بعْدَ الانتِهاء من روايـــةِ (أنــا كارنينا) قضاها تولستوي في **البحْثِ الدينيِّ عَـنْ تفسيرٍ للحياةِ**، وقد استبدَ بهِ قلقُهُ النَّفْســيُّ حتــى خيفَ عليْهِ مِنْهُ: فهُوَ دائمُ الإطْراقِ، يدفِنُ وجْهَــهُ ساعاتٍ بينَ كفَّيْهِ، ويعتزِلُ زوجتَهُ، ويشيحُ عــنْ أبْنائهِ بوجْهِهِ، ويسهرُ ليْلَهُ مفكِّراً حزيناً، يئِنُ أنين

المحمُومِ، وقيلَ إنَّهُ لمْ يبقَ بينهُ وبينَ الجُنـــونِ إلاّ خُطوة واحدة! وهو لا يَني يتساءلْ: ما هذهِ الحياةُ التي أَحْياها وإلى أينَ المصيرُ؟

لقدْ أقْلَعَ الكاتِبُ الفنَّانُ عـــنْ كتابـــةِ روائـــعِ القصصِ الخالدةِ، إذْ أصبحَ لا يرى فيها إلاّ لغْـواً وهُراء لا طائِل فيهما واتَّجهَ بأفْكارِهِ نحْوَ الدِّيـــنِ ومسائِلِهِ، وأخذَ يتردَّدُ علـــى الكنيســـةِ ويُـــزاولُ الطُّقوسَ الدينيَّةَ، ويـــزُورُ الأضْرحـــةَ وقُبـــورَ الأوْلياءِ، ويتْلو الكُتُبَ الدينيَّةَ، ولكنَّ قلقهُ البـاطنيَّ لمْ يهْدأ، وظلَّ إحْساسُهُ بشقائهِ عظيمـــاً، وانكـــبَّ على صياغةِ أفْكارِهِ الدينيَّـــةِ، وكـــانَتْ زوجتُـــهُ تأسفُ لهذا الاتِّجاهِ الجديدِ في تفْكيرِهِ، وكتبتْ إلى

أختِها تصِفُ جهودهُ المضنيةَ في أبحاثِهِ الدِّينيَّـــةِ بقولِها: "كلٌّ ذلكَ ليُثبِــتَ أنَّ الكنيســةَ لاتُوافِــقُ الرِّسالةَ المسيحيَّةَ، مع أنَّهُ لايكـــادُ يوجــدُ فــي روسية عشرةُ أشخاصٍ يهتمُّونَ بهذهِ المبــاحِث!! ولكنَّني لا أستطيعُ أن أعملَ شيئاً، وكلٌّ ما أرجوهُ أن ينْتهي منْ هذا الطَّوْرِ في أقربِ وقْــتٍ، وأنْ تزولُ هذِهِ الحالةُ كما تزولُ الأمْراضُ!".

وقدْ وصَفَ تولستوي **في كتابِهِ (اعــتِرافي) هذهِ الأزمةَ الروحيّةَ** التي اكتوى بنارها، والتــي أظْهرتْهُ على أنَّهُ كانَ على ضلالٍ في كلِّ ما تقدَّمَ منْ حياتِهِ، فكلٌّ ماكانَ يتمسَّكُ حتّى اليــومِ بِــهِ ويسْعى إليْهِ من عظمةٍ وثراءٍ وأُبَّهةٍ ومجْدٍ أدبــيٍّ

وشهرةٍ، كُلُّ ذلك باطِلٌ، أما الخيرُ كل الخيْرِ فهو أنْ يعْمَلَ الإنْسانُ لِسعادةِ غيرِه، متواضِعاً راضياً بالفقْرِ، مُنكِراً للذّاتِ، ولهذا **كان على تولستوي أنْ يبْدأ في جهادِ نفْسِهِ، لتصْحيح ذاتِهِ**، والسَّيْر بِها في طريقِ الهدايةِ بعدَ طولِ ضلالٍ.

لقدِ اعترفَ تولستوي بصراحةٍ وشجاعةٍ بالصفحاتِ السوْداء من ماضيهِ، حينَ كان يشترِكُ في الحُروبِ، وقتْلِ النَّاسِ، ويخوضُ المُبارزاتِ، ويُنفِقُ المالَ الذي كانَ يحصلُ عليْهِ من جهدِ الفلاّحين وكدِّهمْ في القِمارِ واللهْوِ والخَمْرةِ ومعاشرةِ النِّساءِ الفاسِداتِ، ويسلُكُ كلَّ سبيلٍ لِلفُسْقِ والعُهْرِ، ولا يعِفُّ عن المُراوغةِ

والخِداعِ! اعْترفَ بأنَّ حياتَهُ في تلكَ الأيّام كـانتْ كلُّها كِذباً وسرِقةً وفِسقاً وزِناً وسُـكراً وتمـرُّداً وقَتْلاً، ومعَ ذلكَ فقدْ كانَ في نظرِ النَّاسِ الرجُـلَ المُحْترمَ المُثقّفَ الفاضِلَ، وهو عِنْدما بدأ يكتُـبُ، لا لِغرضٍ إلاّ لكي يُرضي غُـرورهُ، ويحصـلَ على المالِ والشُّهْرةِ، كان مضطرّاً إلى مُسـايرةِ رأي النَّاسِ، فيخْفي (الخيْرَ) الذي يُحِبُّهُ، ويقـولُ (الشَّرَّ) الذي يحبُّهُ النَّاسُ، ويعترِفُ تولستوي بأنَّهُ لقِيَ على أساسِ هذا الكذبِ والخِداعِ والنِّفاقِ كُـلَّ نجاحٍ في كتاباتِهِ وفي تفكيرِهِ، **ثُمَّ استيْقظَ ضميرُهُ بعدَ طولِ نومٍ ليُدْرِكَ أنَّ الطريقَ التـي قطعَـها ليسَ فيها غيرُ الشّرِّ والضّلالِ**، وأنَّ الحياةَ علـى

هذا المنْوال تافِهةٌ لا معنى لَها، وأنَّ عليْهِ أنْ يجِدَ تفسيراً لحياتِهِ ومصيرِهِ، وإلاَّ فمـــا عليْـــهِ إلاَّ أنْ يضعَ نِهايةً لوُجودِهِ وبقائِهِ!

لقدْ كادَ تولستوي ييأسُ مِنْ حياتِهِ، بعد طُولِ بحْثٍ وتأمُّلٍ ودِراسةٍ، حتَّى اهْتدى فـــي نِهايـــةِ المطافِ إلى **الإيمانِ بأنَّ الإنْسان جُزْءٌ مِنْ "غيرِ المحْدودِ" الإلهِ اللانهائي**، وأنَّ عليْهِ لكيْ يـــهْتدي إلى تفسيرٍ لحياتِهِ أنْ يحيا حياةً صالحةً مُســتقيمةً فاضِلةً، وأنْ يعْملَ ليكْسبَ خُــبْزَ يومِـــهِ بعـــرقِ جبينِهِ، وليُحافِظَ على نفسِهِ وعلى جِنْسِهِ، **فيقْضيَ أيَّامَهُ في العملِ المُثمِرِ الصّـــالِحِ لـــهُ ولغـــيْرِهِ وللعالَمِ!**

وانكبَّ تولستوي بعدَ كتابِ (اعترافي) علـى أبْحاثِهِ الدِّينيةِ، وقامَ بدراسةٍ جادَّةٍ **للمُوازنةِ بيـنَ الأناجيلِ الأربعةِ**، وانتَهى إلى أنَّ المسيحيَّةَ فـي أصُولِها البسيطةِ تُقدِّمُ تفسيراً عميقاً للحياةِ، يُوافِقُ أسْمى ما تصبْو إليْهِ النَّفسُ البشريَّةُ منْ مطـالبَ، يُمكِنُ أنْ تُحقِّقَ لها الخـلاصَ والسَّـعادةَ علـى الأرْضِ، في هذِهِ الحياةِ الدُّنْيا، قبْلَ تحْقيقِ ذلـكَ لَها في الحياةِ الأُخْرى، **على عكْسِ مـا تُقدِّمُـهُ عقيدةُ الكنيسةِ من تخريجاتٍ وتعْقيداتٍ يرْفضُـها العقْلُ**، ولا يستريحُ القلْبُ إلـى الإيمـانِ بِـها. فخُلاصةُ ما فَهِمَ تولسـتوي مـنَ المسـيحيَّةِ أنَّ "**مملكةَ السَّماء**" ليستْ مكاناً أعِدَّ للمؤمنين الذيـن نجّاهُمْ إيمانهُمْ، ولكنَّها **حالٌ يمكـنُ أنْ يحقِّقـها**

على هذه الأرْضِ من يعيشُ وفقَ ما جـاء بـهِ المسيح، فتعاليمُ المسيحيَّةِ ترشدُه إلى هذا الكَمـالِ إرشاداً عمليَّاً يقومُ على العقْلِ، لا على الخيـالِ والوَهْمِ. وقد لخَّصَ تولستوي غايةَ المسـيحيَّةِ كما فهِمها مِنْ تعاليم المسيحِ في خمسةِ أمـورٍ، إذا عمِلَ بِها المرءُ حقَّقَ مملكةَ السَّـماء علـى الأرْضِ وهِيَ:

1 ـ ألاّ يغضبَ الإنْسانُ.

2 ـ وأنْ يُعاشِرَ النّاسَ جميعاً بالحُسْنى.

3 ـ وألاَّ يقْربَ الزِّنا.

4 ـ وألاّ يُقسمَ قطُّ (أيْ ألاَّ يُؤدِّي يميناً على إطاعةِ أيَّةِ حكومةٍ، وأنْ يُحافِظَ على حُريَّةِ عقْلِـهِ وضميرِهِ).

5 ــ وألاَّ يُقاومَ الشَّرَّ بالعُنْفِ.

ولِهذا فتولستوي **يعتقِدُ أنَّ الكنيسة بعقيدتِها بعيدةٌ كُلَّ البُعْدِ عن روحِ المسيحيَّةِ الصحيحةِ.**

وليسَ عجيباً بعدَ حملةِ تولستوي على الكنيسةِ الرُّوسيّةِ وتفْنيدَ تعاليمها أنْ تُناصِبَهُ الكنيسةُ العداوةَ، وتعُدُّهُ خارجاً عليْها، تُوصي الكهنةَ في مَنْشورٍ سِرِّيٍّ ألاَّ تُقامَ لَهُ في حالةِ موتِهِ المراسيمُ الدِّينيةُ المُعتادةُ!

أمّا تولستوي فكانَ يؤمِنُ بأنَّ روسية ستُدركُ يوْماً، ومعَها العالمُ كُلُّهُ، أنَّهُ قدْ أدَّى إلى أبناءِ المسيحيَّةِ أكْبرَ صنيعٍ بأنْ أراهُمْ المسيحيَّةَ كَما أرادها المسيحُ، لا كما زيَّفتْها الكنيسةُ!

2

وعِنْدما اغتيلَ القيْصرَ الاسكندرُ الثاني فــي عام 1881 عزمَ ابنُهُ وخليفتُهُ **الإســكندرُ الثــالثُ** على تنفيذِ حُكْمِ الإعْدامِ في قتلةِ أبيـــهِ، وبيْنــهُمْ امرأةٌ، فهبَّ تولستوي إلى اتِّخاذِ موقِفٍ مســـتمدٍ مِنْ فهْمِهِ لِتعاليمِ المسيحِ، بعـــدَمِ مُقابلـــةِ الشَّــرِّ بالشَّرِّ، والتخلي عنِ العُنْفِ، **فوجَّهَ كِتابـــاً إلـــى القيْصرِ الشَّابِّ**، عنْ طريـــقِ رئيـسِ المجْمَـــعِ المُقدَّس، **يسألهُ فيهِ أنْ يعْفُوَ ويصفَـــحَ**، ويُقـــابِلَ الشرِّ بالخيْرِ، وكانَ مِمَّا كتبَ في خِطابِهِ:

"إنَّكَ يا موْلاي، لو فعلتَ ذلـــكَ، ودعَــوْتَ أولئكَ الرجالَ، وزوَّدتهُمْ بالمالِ، وأرسلتهُمْ إلـــى

بلادٍ بعيدةٍ مثل أمريكا، ثمَّ أذعْتَ بياناً تبدؤه بهذِهِ الكَلِماتِ: إنِّي أقولُ لكُمْ أحِبوا أعْداءكُمْ، فإنِّي لا أعْلَمُ تأثيرَ ذلكَ لدى الآخرين، ولكنِّي أنا، على قِلَّةِ شأني، سأصيرُ كلبَكَ وأغْدو عبْدكَ! ذلكَ العَملَ مِنْكَ يقْضي على جميعِ الشُّرور التي تتألَّمُ مِنْها روسية، ولسَوْفَ تذوبُ الثوْراتُ كما يذوبُ الشَّمْعُ في النَّارِ أمامَ القيْصرِ الذي يقْضي بشريعةِ المسيحِ!" **رسالةٌ شجاعةٌ وصريحةٌ**، ولكنَّ رئيسَ المجْمَعِ المُقدَّسِ احتفظَ بِها ولمْ يرفعْها إلى القيْصرِ، إلى أنْ تمَّ إعْدامُ المُتآمرينَ، فأعادَها إلى تولستوي، مُتعلِّلاً بالظُروفِ القاسية التي أذهلتهُ عنْ كثيرٍ مِنْ شؤونِهِ، ومُشيراً إلى أنَّ عقيدةَ تولستوي شيء وعقيدتَهُ هو وعقيدةَ الكنيسةِ شيء

آخر! ويُقالُ إنَّ القيْصرَ علِمَ بالرِّسالةِ عنْ طريـقٍ آخر، فأبْلغَ تولستوي أنَّهُ كان يغتفِرُ الاعتداءِ لـوْ وقع عليْهِ، ولكنَّهُ وقعَ على أبيهِ فلا يسـتطيعُ ولا يملكُ أنْ يعفو عنِ المُعْتدين.

غيْرَ أنَّ الرسالةَ المُوجَّهةَ إلى القيصرِ دليـلٌ على أنَّ تولستوي غدا **مُفكِّراً حُرّاً ومُصْلِحـاً ذا رِسالةٍ**، ولوْلا مكانتُهُ الأدبيَّةُ العظيمةُ في روسـية يوْمذاك لنالهُ من عسْـفِ القيْصـرِ وحُكومتِـهِ، لموْقِفِهِ مِنَ الجُناةِ الثائرين، ما نالَ غـيْرَهُ مـن ألْوانِ الأذى والنَّفيِ والسَّجْنِ والتشريدِ.

وفي شتاءِ هذهِ السنة نفسِها (1881) رحَـلَ تولستوي وأسرتُهُ جميعاً عـنْ ضيْعتِـهِمْ إلـى موسكو، ليلتحِقَ أكْبرُ أولادِهِ سيرجي بالجامعـةِ،

ولتُتاحَ لِتانيا البيئةُ لإكْمـــالِ تربيتِـــها، واتَّخـــذتْ الأُسرةُ لسُـــكْناها مـــنزلاً كبـــيراً، وخصَّصـــتْ للفيْلسوفِ غُرْفةً واسعةً، لكنَّهُ لا يجدُ فيها الهُدوء النَّفْسيَّ الذي كانَ يجدُهُ في قصْرِهِ الريفيِّ، ولِـــهذا نجدُهُ في كثيرٍ من الأحْيانِ ينسلُّ مـــــن البيْـــتِ، مُرتدياً ملابِسَهُ البسيطةَ، ليسير طويلاً في التِّـــلالِ والغاباتِ المُحيطةِ بالمَدينةِ، ويُخـــــالِطَ العُمّـــالَ، ويتحدَّثُ إلى العامَّةِ، وقدْ وقعتْ عيْنا تولســــتوي على مظاهِرِ البؤسِ والشَّقاءِ في المدينةِ الكبـــيرةِ: جماعاتٌ مِنَ العُمَّـــالِ العـــاطلينَ يبْحثـــونَ دُون جدْوى عن عملٍ، وحُشودٍ مـــــن ذوي الأسْـــمالِ الباليةِ، مِنَ الرِّجالِ والنساءِ والأطْفالِ الشـــحّاذينَ، يستْجدونَ المارَّةَ في الشَّوارِعِ، والجوعُ والـــبرْدُ

القارصُ يفتِكانِ بِهِمْ.. وكـــانتْ هــذه المنـــاظِرُ البائسةُ تحُزُّ في قلْبِ تولستوي وتدفعُهُ إلى إطالــةِ التفْكيرِ في حالِ هؤلاءِ البائسين لاستجْلاءِ سِـــرِّ شقائِهِمْ ومعْرِفةِ السَّبيلِ إلى القضاء عليْهِ، وقـــدْ أعْلنَ في كتابِهِ **(ماذا عليْنـــا أن نفْعــلَ إذنْ؟)** أنَّ تعاسةَ أولئكَ الفُقراء الجائعين سببُها فـــي رأيــهِ **حُصولُ الأغْنِياءِ المُترفين على أكْثر مِنْ حاجتِهِمْ** مَنَ الطعامِ والمتاعِ، فهُوَ يقولُ: "إني عِنْدمـــا أرى الآلاف منْ بني الإنسان فـــي مخـــالبِ الجُــوعِ والبردِ والانحِطاطِ أفْهمُ، لابعقْلٍ ولا بقلْبٍ، بـــلْ بِمجْموعِ ما فيَّ من حيـــاةٍ، إذْ أنـــا وآلاف مِـــنْ أمثالي يأكلونَ أكثرَ من حاجتِهِمْ من طريِّ اللحْــمِ والسَّمكِ، ويغطّونَ دورهُمْ بالأقْمشـــةِ والسـجَّادِ،

ومهْما يقولُ عُلماءُ العالَم بضرورةِ ذلكَ فإنَّ وجودَ الآلافِ من الجائعينَ في موسكو هُوَ جريمةٌ ترتكِبُ، لا مرَّةً واحِدةً بلْ باستِمرارٍ، وإنّني بِما أنا فيهِ من ترفٍ لا أحتملُ هذهِ الجريمةِ فحسْبُ، بلْ أشتركُ فيها!"

وعِنْدما عزمتِ الحُكومةُ على **القِيامِ بتعدادِ السُّكّانِ، تطوَّعَ تولستوي للعمل في سمولنسكَ وهُوَ أفقرُ أحياءُ المدينةِ**، ليرى كيْفَ يعيشُ البائِسون من سُكانِ هذا الحيِّ، وهُنا لمَسَ بيديْهِ ألْواناً من الشَّقاءِ والتعاسةِ لمْ يكُنْ يعرفُها من قبْلُ، وأدْركَ أن الحالةَ الاجتِماعيَّةَ كُلَّها ينبغي أنْ تتغيَّر، وأنَّ الإحْساس ليْسَ هُو الوسيلة المُثلى لمُساعدةِ الفُقراءِ المحْرومين، بلِ الوسيلةُ لذلكَ أن

نُعلِّمَهُمْ العملَ ونُمهِّدَ لهُمُ السَّبيلَ إليْهِ، كمـــا أدْركَ أنَّ **المالَ هُوَ أساسُ الشرِّ كُلِّــــهِ**، مـــهْما حـــاولَ الاقتصاديون تسويغ التملُّكِ! فامتلاكُ المالِ هُـــوَ أصلُ البلاء ومنبعُ الشَّرِّ!

وفي شُـــباط 1882 كتبــتْ زوجتُـــهُ فـــي مُذكّراتِها: "إنَّ كُلَّ شيء في موسكو عظيمٌ، لـــوْلا أنَّ زوجي يكرهُ حياة المُدُنِ ويقولُ إنَّـــها مليئـــةٌ بالرَّفاهيةِ واللهْوِ والكسلِ!".

وبَدأ الخِلافُ بيْن الزّوجيْنِ يظهرُ للعيـــانِ، وقد سجّلتِ الكونتسُ في مُذكّراتِها بتاريخِ 25 آب 1882 ما يلي: "منذُ عشرينَ سنةً ماضيةً، كنْـــتُ شابّةٍ وكنْتُ سعيدة، وكـــانتْ مُذكراتـــي تفيـــضُ بالحُبِّ لزوْجي، أمّا الآن فإنّي أجلسُ مهْمومـــةً،

أقْضي الليْلَ وحْدي.. لقدْ هجرني زوْجـي إلـى غُرْفةِ مكتبهِ، وأصبحْنا نختلِـفُ علـى أصْغـرِ المسائلِ وأتْفَهها، وقدْ فترتْ علاقتُهُ بي، وقالَ لي اليوم: إنَّهُ يودُّ مِنْ كُلِّ قلبهِ أن يترُكنا، ولنْ أنْسـى هذِهِ الكلِماتِ فقدْ مزَّقتْ قلبي!".

والحقُّ أنَّ نظرةَ كُلٍّ مِـنَ الزوْجيـنِ إلـى الحياةِ أصبحتْ مُخالفةً كُلَّ المُخالَفةِ للأُخرى، فقدْ كان **تولستوي يجدُّ في طريقِهِ إلى تطْهيرِ نفْسِـهِ والسُمُوِّ بروحهِ،** وقـدْ أصبـحَ يرتـدي ثيـاب الفلاّحين الخشِنة، وينتعِلُ حذاء مِـنْ أحذيتـهمْ، ويكْثرُ من مُخالطةِ الفُقراءِ، وقد حكمَ مـنْ كـان يعرفُهُ من قبلُ مِنْ أصْحابِـهِ بأنَّـهُ قـد تطـوَّرَ **وأصْبحَ إنْساناً جديداً،** فهُوَ رقيقٌ بسيطٌ طيـبٌ،

حكيمٌ في تصرفاتِهِ، لايحاولُ أن يفرضَ رأيـــهُ أو يضْغط على مُحدِّثهِ لإقناعِهِ بصوابِ أفْكارِهِ! لقـــدْ أصْبحَ يُصْغي بوداعةٍ إلى اعتراضاتِ تورجنيـــف عليْهِ هادئاَ باسِماً! إنَّهُ ليس بالكونت تولستوي الذي عرفْناهُ في شبابِهِ أبداً، فهُو قدْ وُلِدَ وِلادة جديــــدةً، بإيمانٍ جديدٍ، وقلْبٍ جديدٍ ومحبّةٍ جديدة! هذا مـــــا كتبهُ بولونيسكي عِنْدما رآهُ بعْد تطوُّرِهِ الكبيرِ.

أمَّا الكونتسُ تولستوي فكانَ يُحْزِنُها ويُؤلِمُها ما آل إليْهِ حالُ زوْجِها، وكـــانتْ كثــيرةَ اللــوْمِ والعِتابِ لهُ، ولمْ تكُنْ قادرة على إدْراكِ ما يعتَمِلُ في نفْسِ زوْجِها من صِــراعٍ رُوحــيٍّ عميــقٍ، وعذابٍ وشقاء، وقدْ كانَ مردُّ شقائهِ إلى ثلاثـــةِ أسْبابٍ: أولُها أنهُ مهْما أكْثرَ مِنْ مُخالطةِ الفقُـراءِ

والفلاّحينَ، فهُوَ لا يُحِسُّ إحْساساً كامِلاً أنَّهُ واحِدٌ مِنْهُمْ، **وثانيهما:** أنَّهُ وهو الذي يُؤمِنُ بأنَّ المالَ هو أساسُ الشَّرِّ، ما يزالُ واحِداً من كِبارِ المالِكين، فأيُّ تناقُضٍ كبيرٍ بيْنَ أقْوالِهِ وحقيقةِ وضْعِهِ **وثالِثُهما** موْقِفُ الحُكومة والكنيسةِ مِنْ كتبِهِ وآرائِهِ الدِّينيَّةِ والإصْلاحيَّةِ.

لقدْ كانَ أعْداؤه يُشَنِّعونَ عليهِ هازئينَ، ويُهاجِمون آراءه وأفْكارهُ الجديدةَ ويتَّهِمونهُ بالنِّفاقِ، وقدْ أحْزنَ ذلكَ كلُّهُ قلْبَ صديقِهِ **تورجنيف** عليْهِ، **فكتَبَ إليْهِ** منْ فِراشِ موتِهِ في تموز 1883 رِسالةً يرجوهُ فيها أنْ يعودَ إلى رحابِ الفنِّ، وناداهُ بقوْلِهِ:

"يا **شاعِرنا العظيم**، يا لِسان هـــذهِ الأرْضِ، أرضِنا الرُّوسيةِ، **عُدْ إلى الأدبِ، فهُوَ موهِبتُـــكَ الحقيقيةُ**، اسْمعْ توسُّلَ رجُلٍ يمُوتُ!"

ولكنَّ تولستوي لايعُودُ إلى الأدبِ إلاّ بعْدَ أنْ يطمئنَّ قلبُهُ بالإيمانِ، ويتخلّـــصُ مـــن أزْمتِـــهِ الرُّوحيةِ وعذابِهِ النّفْسيِّ، ويجدَ للحياةِ التي يحياها معنى يرضاه، وتفْسيراً تستريحُ إليْهِ نفْسُهُ القلقةُ.

وقدْ حاولَ تولستوي أن يتنازلَ عنْ أمْلاكِهِ، تنفْيذاً لِمبادئِهِ، ولكِنَّ زوجتهُ أثارتِ الأُسرةَ كلَّـــها عليْهِ، ونشِـــبَ نِـــزاعٌ عـــائليٌّ كبِـــيرٌ، وأرادتِ الكونتسُ أنْ تطلُبَ مِنَ المَحْكمةِ وضْـــعِ أمـــلاكِ زوْجِها تحْتَ الحِراسةِ، وهدَّدتْهُ مرّاتٍ بالانتِحارِ، وظلّتْ تُلاحِقُهُ بشكايَتِها وبُكائِها، وعِنْدما يئِسَ مِنْ

إقْناعِها، ترك لها الثَّراء، ليحْيا هُوَ حياة الفُقَــراءِ، فجعلَ لها الولايةَ على ما يَمْلِكُ، والإفــــادةَ مِــنْ إيراداتِ مُؤلفاتِهِ الصّادِرةِ حتّى عام 1881.

وهكذا أصْبحَ الفيْلســـوفُ يعيــشُ عيشَــةَ الزُّهّاد، بعدَ أن تخلَّى عن ثرْوتِهِ لزوْجتِهِ، فحــرَّمَ على نفْسِهِ أكْلَ اللَّحْمِ رحْمةً بالحيوانِ، كما حـــرَّمَ الصَّيْدَ والخمْرة والتدخينَ، وانْصرفَ إلى العمــلِ بيديْهِ، يزْرعُ حيناً، ويعْملُ في صُنْعِ أحذيتِهِ حينــاً ويُكْثِرُ مِنْ مُخالطَةِ الفُقراءِ والمساكينِ.

3

في عامِ 1886 **عادَ تولستوي إلى فنِّهِ القصصيِّ**، ليتَّخِذَ مِنْهُ وسيلةً لإذاعةِ آرائِهِ وأفْكارِهِ، وقدْ أصبْحَ للفنِّ عِنْدهُ رسالةٌ يُؤدِّيها، وهِيَ خِدمةُ النّاسِ، ويبْدو أنَّ ضيقَهُ بتعسُّفِ الرَّقابةِ على مؤلَّفاتِهِ الفِكْريَّةِ ومنْعِ نشْرِها هُوَ الذي دفعَهُ إلى العودةِ إلى الفنِّ، **بنشرِ قِصَّتِهِ (موْتِ إيفان إليتش)** التي كتبَها في ذلِكَ العامِ، واستبْشَرَ النَّاسُ في روسية وأوربة بعوْدةِ الفنّانِ العبْقريِّ إلى مجالِ إبْداعِهِ الأكبرِ، وقدْ **كتَبَ بعدَ ذلكَ مسرحيةً وعدَّةَ قصصٍ، مِنْ أهَمِّها (أنشودةُ كروتزر) وهيَ قِصَّةُ الزَّوْجةِ الخائنةِ**، وقدْ أثارتْ

كثيراً مِنَ الصخَبِ واللَّغطِ، لتصْويــــرِ العلاقــةِ الجنْسيَّةِ فيها صورة حيوانيّةً ليْـــسَ الحُـبُّ إلاَّ طِلاء يُخفيها، **وكانَ للقِصَّةِ وقْعٌ سيٍّءٌ في نفْـسِ زوجتِهِ، لأنَّ النَّاسَ أصبْحوا يربِطون بيْنَ القِصّــةِ وحياتِها الزَّوْجيةِ**، فراحتْ تقسُو على زوجِها، ثُـمَّ خطرَ لها عِنْدما منعَ الرَّقيبُ نشرَ القِصَّةِ، لاحتِجاجِ الكنيسةِ عليْها، أن تتوسَّلَ إلــى القيْصَــرِ ليسْـمحَ بنشْرِها، فإذا علِمَ النَّاسُ دورَها في السَّـعي إلــى نشْرِها لمْ يُصدِّقوا أنَّها المقْصودةُ بِما كتبَ زوجُها!

وأذِنَ القيْصرُ للكونتسِ تولستوي، فلمّا مثُلتْ بينَ يديْهِ لقيَها بكثير من العَطْفِ، وباركَ عــوْدةَ زوْجِها إلى الفنِّ، ووعدَها بالمُوافقةِ على طبْــعِ القِصَّةِ الأخيرةِ في مُجلَّدِ أعْمالهِ الكامِلةِ.

أمَّا زوْجُها فلمْ يرضَ عمَّا فعلتْ، كما كـــانَ لا يرْضى عنْ كثيرٍ منْ تصرُّفاتِها، ولكنَّها كانتْ عنيدة في عمْدِها إلى كُلِّ ما يُضايقُهُ، وقدْ حـــدثَ مرةً أنْ أخذَ بعضُ الفُقراءِ خشـــباً مِـــنْ غابـــاتِ الكونتِ، فقدَّمتْهُمْ إلى المُحاكمةِ، ولمَّا بلغـــهُ نبـــأُ سجْنِهِمْ لمْ يستطِعْ أنْ ينامَ اللَّيْل! **واشتدَّ الـــنِّزاعُ بيْنَ الزَّوْجين** عام 1891 حينَ أرادتِ الكونتـــسُ أنْ تقْسِمَ ثرْوةَ زوجِها بيْنها وبيْنَ أوْلادِها، وكـــانَ تولستوي يُريدُ مِنْهُمْ أن يتنـــازلوا عَـــنِ الـــثرْوةِ للفلاّحين، ولكنَّهُمْ لمْ يستجيبوا لإرادتِهِ، وقُسِّـــمتْ الثروةُ، ورفضتِ ابنتاهُ ماري وتانيـــا أنْ تـــأخُذا نصيبيْهِما، استِجابةً لأبيـــهِما، وكانتـــا تُحِبَّانِـــهِ

وتُؤثِّرانِهِ بشدَّةِ تعلُّقِهما بهِ، فسُرَّ الأبُ وغضِبتِ الأمُّ لموقفِهما.

وفي هذا العامِ **وقعتِ المجاعةُ في روسية** واستمرتْ مُدَّة سنتيْنِ، وقدْ بذلَ تولستوي كُلَّ جُهودهِ لِتقْديمِ العَوْنِ إلى الجائعين، وكتبَ يُطالِبُ بإنْصافِهِمْ ويُنَدِّدُ بالحُكومةِ، ويجْمعُ المالَ والرِّجالِ، **وقدْ جنَّدَ أولادهُ وبناتِهِ وزوجتَهُ لتخْفيفِ الكارثةِ على النَّاسِ**، من الجوْعى والمرْضى، وأقامَ هو نفسُهُ في الأقاليمِ الجائعةِ، وكان يقولُ: "ليْسَ مِنَ العَدْلِ أنْ نَدَّعي أنَّنا نحْنُ الذينَ نُطْعمُ هؤلاء الجياعِ، لأنَّهُمْ هُمْ في الحقيقةِ الذين يُطْعِمونَنا" وقدِ احْتَملَ خِلال هاتيْنِ السنتيْنِ آلاماً حتَّى كادَ يفقِدُ ذاكِرتَهُ من التَّعبِ. وكانَ

يقْضي نهارهُ بيْنَ النَّاسِ، ومِنْ حولِــهِ الكولــيرا والجُــدَرِيٌّ والتيفــوسُ والأمــراضُ الأُخْــرى، لايخافُ العدْوى ولا يشْكو الكــلال، كمــا **كــانَ يقْضي ليْلهُ في كتابةِ المقالاتِ للصُّحفِ**، يحُضُّ فيها القادِرينَ علــــى الجُــودِ والعَمــلِ، ويُنــدِّدُ بالأغْنِياءِ الذين لا يَمُدُّونَ يــدَ العــونِ والنَّجْــدةِ للجائِعين، **وانْهالت عليْهِ التبرُّعاتُ من روســيةَ وانكلترة والولاياتِ المتحدّةِ**، فأنشأ أعْداداً كبــيرةً مِنَ المطاعِمِ لتغذيةِ الجائِعين، وأحبَّــــهُ النــاسُ، ولكنِّ خصومهُ ازْدادوا كيْداً لهُ، وأشاعوا عنْهُ أنَّهُ **داعيةٌ خطيرٌ من دُعاةِ الثورةِ**، ودافعتِ ابنةُ العــمِّ (ألكسندرا تولستوي) عنْهُ أمامَ القيْصرَ، ووصفتْهُ بقولِها: "**عبقريٌّ روسيةَ الأكبر**" وأجابها القيْصــرُ

بأنَّهُ لنْ يجْعلَ منْهُ شهيداً، فيكْسبَ بِذلكَ استِنْكارَ العالمِ المُتمدِّنِ!

الحقُّ أنَّ تولستوي لمْ يكُنْ يوْماً منْ دُعاةِ الثوْرةِ والدِّماء ومقاومةِ العُنْفِ بالعُنْفِ، وهُوَ القائِلُ: "نحنُ حقيقةً في حاجةٍ إلى ثورةٍ، ولكنَّها ليْستْ ثورة دمويَّةً، بلْ ثوْرة في ضمائرِ الأغْنِياءِ وفي قلوبِهِم!" فهُو داعيةٌ الإخاءِ والحُبِّ والإيمانِ والتعاطُفِ بيْنَ النَّاسِ، وعدمِ مُقاومةِ العُنْفِ بالعُنْفِ، غيْرَ أنَّ تولستوي بمبادئهِ التي أذاعَها بيْنَ النَّاسِ كانَ أوَّلَ منْ تحدَّى القيْصريَّةِ وهِيَ في عُنفُوانِ قُوَّتِها، وتحدَّى الكنيسةَ في أوْجِ سُلْطانِها، وبثَّ الشجاعةَ في قُلوبِ النَّاسِ، فكانَ بِكُلِّ ذلكَ مُمهِّداً للثَّوْرةِ الاشتراكيَّةِ القادمةِ في

4

وفي عامِ 1895 بدأ تولستوي كتابةَ **رائعتهِ الفنِّـيَّةِ الثالثةِ** (**البعْثُ**) ونشرها في عامِ 1899 وسُـرعانَ مـا تُرجمـتْ إلى اللغاتِ الأوربيَّةِ، وذهَبَ لها صيْتٌ عظيمٌ، وتقومُ فكرةُ القصَّةِ على أنَّ الـرَّجُلَ الآثِمِ إذا تخلَّى عن الفتاةِ التي أغْواها يكـونُ هُوَ المسؤولَ عمَّا تتْحدرُ إليْه ضحيَّتُهُ منَ السُّـقوطِ والرّذيلةِ، وقدْ كانتْ هذهِ الفكْرةُ تُرهِقُ ضـميرَ تولسـتوي، لِما كانَ منْهُ في شبابِهِ منْ إغْوائِـهِ إحْـدى الخادِماتِ، وما انتْهتْ إليْه بعدَ طردِها من انغِماسٍ في الرَّذيلةِ والإثْمِ!

ويـرى الباحِثونَ أنَّ (**البعثَ**) دُون رائعتي تولسـتوي الخالِدتيْـنِ (**الحربُ والسلام**) و (**أنا**

كارنيـــنا) ولكنَّهُمْ يُؤكِّدونَ بأنَّ فيها مواقِفَ لاتقلُّ فـــي روعتِها وجمالِها عن الرِّوايتيْنِ السابقتيْنِ: ففــيها صـــورٌ بهــيجةٌ منْ حياةِ تولستوي، أيّام الهوى والشَّبابِ، وفيها وصْفٌ لصِراعِهِ النَّفْسيِّ العنــيفِ بيْــن مَطالبِ جسمِهِ وشهواتِهِ، ونَوازعِ رُوحِـــهِ إلى السُّموِّ والتَّطَهُّرِ، وفي الرِّوايةِ كثيرٌ مـــن آرائـــهِ الإصْـــلاحيَّةِ وفلسفتِهِ في المرْحلةِ الأخـــيرةِ مِـــنْ حياتِه، مِنَ الدَّعْوةِ إلى الحُبِّ في العلاقـــةِ بيْـــنَ الـــنَّاسِ، وكالحمْلةِ على الكنيسةِ والسخْريةِ مِنْ بعْضِ طُقوسِها وشعائِرِها.

وعِندما **أهلَّ القرنُ العشْرون** على الدُّنْيا كانَ تولســـتوي شيْخاً في الثانيةِ والسَّبعين، وقدْ تمكَّنَ

أنْ يصِــلَ إلى أوْجِ مجدِهِ الأدبيِّ، ويُصبحَ **أعْظمَ كُــتّابِ القصّـــةِ فـــي القرنِ التاسعِ عشر**؛ وتعُمُّ شُهرتُهُ آفاقَ الدُّنْيا، فيتهافتُ على ضيْعتِهِ الزُّوّارُ مِــنْ أقاصـــي العـــالمِ، ويحمِلُ إليْهِ البريدُ آلافَ الرَّســائلِ مِــنْ قُرّائهِ والمُعجبينَ بفنِّهِ وعبقريَّتِهِ وأفْكــارِهِ ومــبادِئِهِ، وقــدْ ظلَّ في بدايةِ القرْنِ العشــرين يُتابِعُ كِتابةَ القصصِ، ويُثْبِتُ بِها "**أنَّ الأسدَ الهرِمَ ما تزالُ لهُ قُوَّةُ مَخالبِهِ!**".

وخِــلال الســنواتِ العشــرِ التـــي عاشَها تولســتوي مِــنْ هذا القرنِ، ظلَّ عبقريٌّ روسيةَ العظــيمُ يتحدَّى السُّلطاتَ، ويُرحِّبُ بالأذى الذي يأتــيهِ من الكنيسةِ والدَّوْلةِ، في صبرٍ واحتمالٍ، وفــي أيّــارِ 1904 **أعلــنَ سُخْطَهُ على الحربِ**

الرُّوسيَّةِ اليابانيَّةِ، ولمْ يُقرَّ ثورات 1905 لأنَّها كانتْ قائمةً على العُنْفِ، وظلَّ الشِّقاقُ بيْنهُ وبيْنَ زوجتهِ على أشدِّهِ، وكانَ أكْبر مصدرٍ لآلامهِ في السَّنواتِ الأخيرة منْ حياتهِ.

وفــي عــيد مــيلادهِ الثَّمانين (عام 1908) تقاطــرَ النَّاسُ على ضيعتهِ في وفودٍ كثيرةٍ منْ أنصــارهِ ومُريديهِ، للاحتفالِ بعيدهِ، وكانَ بينهُمْ وفــودٌ مِــنَ الدُّولِ الأوربيةِ ومنْ أمريكا والهنْدِ والــيابان! **لقــد أصبْحَ تولستوي (رجُل العالمِ)** وتلقَّــى في ذلكَ الصَّباحِ أكثرَ منْ ألْفي برقيةٍ منْ روســيةٍ وباقي أنْحاءِ الدُّنْيا، وصدرتِ الصُّحُفُ علــى اخْتلافِ نزعاتِها بصورهِ وتمْجيدهِ والثَّناء على عبقريَّتهِ ومُؤلفاتهِ وجهادهِ.

لقــد أحــاط النَّاس (**نبيَّ العصْرِ**) كَما سمَّوْهُ بِــبالِغِ الحُــبٍّ والتقْديرِ، ولكِّنَ الرَّجُلَ العَجوزَ لمْ يجِدِ الرَّاحةَ والسعادةَ في بيْتِهِ، وكانَ يحملُ نفسهُ علــى الصَّبْرِ ولكِنَّهُ في عام 1910 أصبح بيتُهُ جحــيماً، لمــا كان يلْقى فيهِ على يدِ زوجتِهِ مِنَ العذابِ، فقرَرَ أن يضعَ حدّاً لشقائِهِ بالفِرارِ.

وكــان فِــرارُهُ في جُنْحِ اللَّيْلِ نِهايةً لمأساةِ حياتِهِ الطَّويلةِ.

خاتمة المطاف

تولستوي فنّانٌ عبقريٌ ذو رسالة

كانَ النِّزاعُ بين الكونتسِ تولتسوي وزوجها مصـــدر شـــقاء الفيلسوف العبْقريِّ في سنِيِّ حياتِهِ الأخيرةِ: بعْد توْزيعِ ثروتِهِ على أوْلادِهِ أصـــبحَ تولستوي فقيراً زاهِداً راضِياً بالكفافِ وخُشـــونةِ العيْشِ، ولكِنَّ الأرْباحَ المُتزايدةَ من مؤلفاتِـــهِ كانتْ تدُرُّ عليْهِ مبالِغَ وفيرة، وكانتْ زوجتُهُ تُجاهِدُ لِكيْ تحتفِظَ بِحُقوقِ الأسرةِ فيها، دون تحقيقِ رغْبةِ زوْجِها في التَّنازُلِ عنْ تلْكَ الحُقوقِ للأُمةِ، وكانتْ بعضُ بناتِهِ والمُتعصِّبين لِمبادئِهِ منْ تلاميذِهِ إلى جانِبِهِ في صِراعِهِ معَ

زوْجــتهِ، وأرادَ تولســتوي أنْ يكتُبَ ذلِكَ في وصــيَّتِهِ، فثارتْ ثائِرةُ الزوْجةِ، وأقامتْ الدُّنْيا علــيْهِ، ممّا اضْطَّرهُ إلى **تحريرِ وصيَّتهِ سِرّاً**، فــي غفلــةٍ من مُراقبةِ الزوجةِ لهُ، وقدْ آلمهُ ذلِــكَ، وهُوَ الذي كانَ صريحاً في حياتِهِ، أنْ تضْطرَّهُ زوجتُهُ إلى عملٍ يتنكَّرُ فيهِ لعادتِهِ في الصَّراحةِ والمُجاهدةِ، وعلِمتِ الكونتسُ بِخبرِ الوصيَّةِ فجُنَّ جنونُها، وحاولتْ بِكُلِّ وسيلةٍ منْ وسائِلِ الحيلةِ أو العُنْفِ أنْ تصِلَ إلى الوصيةَ لــتُعدِمها، وانقسَــمَ الأبْناءُ فريقيْنِ، **وأصبحتْ حياةُ الفيْلسوفِ وهُوَ يدرُجُ نحْو قبْرِهِ عذاباً لا يُطاقُ!**

وفـــي ســـاعةٍ مـــتأخِّرةٍ مـــن ليْلِ السابِعِ والعشـــرين مِنْ تشرينَ الأوّلِ 1910 استيْقظَ الفيْلسوفُ المُعذَبُ لِيُفاجِىء زوجتَهُ وهي تَبْحثُ بيْـــنَ أوْراقِـــهِ ومخْطوطاتِـــهِ، فـــثارتْ نفسُهُ اشْـــمئزازاً مِـــنْها، ثُمَّ انتظرَ حتى عادتْ إلى مخْدعِهـــا، فنهضَ من فِراشِهِ وارتدى ملابسهُ وحمـــل حـــذاءهُ ومشى على أطْرافِ قدميْه، وغـــادرَ المنْزلِ، بعدَ أنْ أيقظ ابنتَهُ الكسندرا وطبيـــبهُ وبعضَ تلاميذهِ وأنبأهُمْ بعزْمِهِ على الرَّحـــيلِ، ليقْضيَ الأيام الأخيرةَ منْ حياتهِ في الهُـــدوءِ والوحْدةِ، وأفْضى إلى ابنتهِ بِما ينْوي أنْ يفْعـــلَ، وركـــبَ العربةَ مع طبيبهِ وبعْضِ

خدمِـــه فـــي قلبِ الظلامِ، إلى المحطَّةِ، ومنها ركِبَ القِطارَ مع طبيبِهِ نحْوَ **ديْر أوبتينا**، حيثُ أمْضى ليلتَهُ التاليةَ، وأرْسلَ برْقيةً إلى ابْنتِهِ في صــباحِ 29 تشرين الأوّلِ بِمُواصلةِ سفرِهِ إلى مقــرِّ أخـــتِهِ، **ليقيمَ لديْها قليلاً**، وقدْ لحقَتْ بِهِ ابنتُهُ مع صاحبةٍ لها، **وأحسَّ الشيْخُ المِسكينُ أنَّهُ مُطاردٌ** وأنَّ زوجتَهُ لنْ تلبثَ أن تهتدي إلى مكانِـــهِ، فقـــرَّرَ مُواصلةَ الرحْلةِ بعيداً، مع أنَّ حالـــتهُ الواهِـــنة لم تكُنْ تحتمِلُ مُتابعةَ السَّفرِ، وفـــي ليلـــتِهِ تلكَ **غادَرَ الشيْخُ المريضُ بيْتَ أخـــتِهِ، فـــي جوٍّ عاصِفٍ مِنَ المَطَرِ والثّلْجِ،** ليسْـــتقِلَّ مـــع ابنتِهِ وصديقتِها وطبيبِه القِطارِ

الليْلـــيَّ نحْــو (**رستوفَ**) ولكِنَّ الحُمَّى أنْهكتْ قــواهُ، وزادتْ حرارةُ جسمِهِ المريضِ، فقرَّر المُســـافِرون الــنُّزولَ **في أوَّلِ بلدةٍ يحُطُّ فيها القِطـــارُ**، وكانتْ (استابوفو) وهِيَ قريةٌ على بُعْــدِ خمســـينَ مــيلاً مِنْ ياسنايا، **وقدَّمَ ناظِرُ المحطَّـةِ غُـرْفةً فـــي دارِه للشَّيْخِ المريضِ**، وانضَـــمَّ طبيـــبُ القريةِ إلى طبيبِ تولستوي، وقــرَّرا معـــاً أنَّهُ مُصابٌ بالتِهابِ الرِئةِ، وبدأ الشَّــيخُ يسعُلُ سُعالاً مُتَّصِلاً، وظهَرَ الدَّمُ في بُصـــاقِهِ، ولكنَّهُ كان دائِمَ التساؤلِ عنْ مُتابعةِ السَّــفَرِ ويصيحُ في هذيانهِ: "**ينْبغي أن نرْحلَ قبْلَ أنْ يُدرِكونا!**".

وفي اليومِ التالي تناقلَتْ أسلاكُ البرْقِ النَّبأ وأصـــبحتْ قــريةُ استابوفور موضِعَ اهْتِمامِ العــالمِ، وهُــرعَ إلــيْها الأقارِبُ والأصدِقاءُ ورجـــالُ الصَّحافةِ، وصارتْ أنباءُ الفيلسوفِ المُحتضـــرِ تُـــنقلُ ساعةً فساعةً إلى عواصِمِ العالمِ!

وفـــي الـــيومِ السادسِ من تشرينَ الثّاني 1910 ساءتْ حالتُهُ وفقدَ وعيَهُ طوالَ النَّهارِ، وفـــي اليومِ التَّالي كان يلفِظُ أنْفاسَهُ الأخيرةَ، وقدْ سُمِحَ لزوْجتِهِ الكونتسِ أن تودِّعهُ، فجثتْ إلى جانِبِ سريرِهِ لِتسألهُ الصَفْحَ والغُفْران!

وهكـــذا أغْمضَ العبقريُّ العظيمُ عينيْهِ في السَّـــابِعِ مـــن تشرينَ الثاني عام 1910، بعدَ حـــياةٍ طويلـــةٍ عامرةٍ بالعطاءِ الفنِّيِّ والفِكْريِّ الخالِدِ، والنِّضالِ المُستميتِ في تحقيقِ الرِّسالةِ الكبـــيرةِ التـــي عـــانى فـــي سبيلها ما يُعانيهِ المُصْـــلِحونَ وأصْحابُ الرِّسالاتِ، في صبرٍ علـــى الأذى، واحتِمالٍ للاضْطِهادِ، إلى آخرِ لحْظةٍ في حياتهِ.

المحتوى

أعلام مبرّزون

سلسلة في عشر حلقات تعرض سيراً موجزة

لأعلام مبرزين من الشرق والغرب

سلسلة صغيرة تغنيك عن مكتبة كبيرة

دار الشرق العربي
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والمصورات
بيروت - لبنان - ص.ب ٦٩١٨ / ١١
حلب - سوريا - ص.ب ٤١٥